قواعد التكفير عند أهل السنة والجماعة
ابن تيمية نموذجاً

بقلم
الدكتور محسن عبدالحميد
أستاذ التفسير والعقيدة والفكر
في جامعة بغداد

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

الإمام ابن تيمية بإجماع المخلصين الصادقين الباحثين عن الحق كان من علماء الأمة العاملين المجاهدين. وكان مجتهداً جليلاً جامعاً بين العلوم النقلية والعقلية، مطلعاً إطلاعاً عميقاً على أصول الأديان وجذور انحرافات أهلها.

وأما دراساته لمقالات الفرق الإسلامية فقد كانت عميقة، مكنته من كشف أخطائها أو انحرافاتها. وكان مع ذلك محققاً تحقيقاً منصفاً للتواريخ، ولاسيما الحركة التاريخية للمجتمع الإسلامي إلى زمانه، راصداً لأدوائها، محذراً من استمرارها، ساعده على تحقيقاته الدقيقة، ذكاؤه الحاد، وحفظه المتقن لكتاب الله تعالى وسنة رسول ﷺ وأقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم واجتهادات علماء المذاهب. جمع بين فهم راسخ للشريعة الإسلامية؛ أصولها وقواعدها ومقاصدها ومآلاتها، وبين معرفة واسعة بأحوال الناس ومشكلات الحياة، وتطور أوضاع المسلمين وأسباب تخلفهم وبعدهم عن المنهاج الحق.

وفي كتبه وفتاواه علوم غزيرة، حجبها المتعصبون عن القرون التي تلته، ولم يُكشف عنها الغبار إلا في العصر الحديث، فوجد فيها الفقهاء والمفكرون ضالتهم، وتناولوها بالدراسة والتحليل، ووجهوها لحل المشكلات الحضارية التي واجهت المسلمين، وتبنوا كثيراً من آرائه في

تصفية العقائد الإسلامية التي صاغت أمة الإسلام الأولى، فأداروا معاركهم في عالم الشهادة عليها. أي أن ابن تيمية في مراجعته الدقيقة للتراث الإسلامي كله، أراد أن يرجع الأمة إلى صراع عالم الشهادة الذي أنتج التقدم والحضارة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، لينقذهم فيما وقعوا فيه بفعل تأثرهم بالحضارات الأجنبية من صراع عالم الغيب الذي فرق بينهم، وكان سبباً لتأخرهم وهزائمهم أمام التتر من الشرق والصليبين من الغرب.

وعلى الرغم من أن منهج ابن تيمية كان منهجاً إسلامياً شمولياً مقاصدياً مآلياً جامعاً بين العقيدة والشريعة والسلوك، ولم يكن منهجاً أحادياً يركز على العقيدة وحدها، غير أن صفاء دعوته إلى العقيدة الصحيحة في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومحاربته البدع والخرافات، وما دخل على تراث الأمة من انحرافات، واجتهاداته الفقهية المرنة المتفقة في جوانب كثيرة منها مع حركة الحياة المعاصرة، حببته إلى تيار واسع من شباب الجيل الجديد، سواء أكانوا ينتمون إلى المدرسة السلفية المعتدلة أم المتشددة، فضلاً عن شباب المدرسة الوسطية.

على أن محن المسلمين بيد أعداء الإسلام في الداخل والخارج، وما أصابتهم من الويلات في بلاد إسلامية عدة، ولاسيما في فلسطين، دفعت جماعات من التيار المتشدد إلى سلوك مسلك العنف والتطرف والتكفير، فاتبعوا في العالم الإسلامي، منهجاً دموياً موجهاً إلى المسلمين، دون تفريق

بين الرجـال والنـساء والأطفـال، حتـى شمـل ذلـك كـثيراً مـن العلمـاء والدعاة. وأما في خارج العالم الإسلامي فقد توجهوا إلى الانتقام الـدموي من المدنيين الآمنين في محطات القطار وتفجير العمارات في بـلاد الغـرب، فقتلوا ألوفا من الرجال والنساء والأطفال[1].فأساؤوا إلى سمعـة الإسـلام إساءة بالغة في تلك المجتمعات، بل العالم كلـه، فتولـدت عنـد أهلـها ردود فعل قوية ضد الإسلام وأهله. والشعوب الغربية كانـت مهيئـة مـن قبـل لوضع الإسلام دائما في قفص الاتهام عـبر التربيـة الـصليبية والـدعايات الصهيونية.

وما أحدثه هذا العنف الدموي الجديد أيقظ كوامن تلـك العـداوة التاريخية بأقوى وأجلى مظاهرها بين تلك الشعوب، فهاجموا الإسلام عبر القنوات الإعلامية العالمية التي تـدخل في منـازل الـدنيا كلـها، وخططـت حكوماتها لمحاصرة الدعوة الإسلامية في داخل العالم الإسلامي وخارجـه، ولاسيما في البلاد الغربية. فبدل تغيير مسار الحكومات في الغرب، كانـت النتيجة تدمير بلاد إسلامية بحجة هذا الإرهاب الذي يـبرأ منـه الإسـلام، كفلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان والصومال وغيرها.

وفي هذا البحث سنركز على ما يحـدث الآن في الـبلاد الإسـلامية، من ظهور جماعات تسلك مسلك الخوارج القدماء في سفك دمـاء النـاس،

---

(1) وفي معظم الأحوال تستدرجهم إلى تلك الأعمال منظمات سرية ولاسيما اليهودية من إيقاف تقدم الإسلام في العالم ولاسيما في الغرب.

والحكم بالكفر على الأمة حينا وعلى العلماء والدعاة حيناً آخر، ومع أنها تجهل حقائق الإسلام كجهل الخوارج عقيدة وشريعة، غير أنها تفتقد كثيراً إلى إخلاص الخوارج في العبادة وصدق الكلام، لأنهم عدوا الكبائر مخلدة في النار، مع أنهم ضلوا لعدم معرفتهم بمعاني ومقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وهؤلاء يسمون أنفسهم بالتيار السلفي الجهادي وينسبون أنفسهم إلي شيخ الإسلام ابن تيمية، ومدرسته السلفية ويردون أقوال غيره من العلماء قديماً وحديثاً، وهم مع ذلك يجهلون مذهبه، لأنهم لم يقرأوه قراءة علمية دقيقة ولم يتخلقوا بأخلاقه الإسلامية الربانية العالية.

ولذلك قررت أن أتوغل في فتاوى ابن تيمية، لأعرض أمام القارئ الكريم قواعده الدقيقة في التكفير التي هي قواعد أهل السنة والجماعة، لعل المسلمين يفهمونها فهماً راسخاً، ولاسيما الشباب المغرر بهم، كي يتراجعوا عن مواقفهم المنحرفة في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، وينخرطوا في الخط الإسلامي الصحيح المعتدل الذي أنزله الله رحمة للعالمين.

الفصل الأول

قواعد أهل السنة في التكفير

الفصل الأول

قواعد أهل السنة في التكفير

القاعدة الأولى :

لا يجوز تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين، لعدم علمهم بالشريعة الإسلامية في تقرير هذه الأمور الخطيرة، ولإتباع أهوائهم.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى "إن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، لما يعتقدون أنهم أخطأوا.ولقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم لمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ. وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر أو يفسق بلا إثم".

وذكر الإمام "أن هذا جاء من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين"[1] .

ويقول: والمجتهد من أمة محمد ﷺ "إذا اجتهد وقصد الحق فأخطأ لم يكفر بل يغفر له خطؤه، ولكن من تبين له ما جاء به الرسول فشاقه من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين، فهو كافر، ومن اتبع هواه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣٥ ص ١٠٠

في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب قد يكون فاسقاً، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته "[1] .

ويقول : " لا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية (الإعتقادية) ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله تعالى يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب إدراكه في زمانه ومكانه، إذا كان مقصده متابعة الرسول عليه السلام بحسب إمكانه هو أحق بأن يقبل الله تعالى منه حسناته ويثيبه على اجتهاده ولا يؤاخذه بما أخطأ لقوله : {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}[2] .

وانطلاقاً من هذه القاعدة الواضحة فإن ابن تيمية، في الوقت الذي يرّد فيه على المتكلمين من المدارس الإسلامية المتنوعة، ويبين أخطاءهم من وجهة نظره، فإنه لا ينسى حسناتهم وما قدموه للإسلام من خدمات فيقول : " ثم إن ما من هؤلاء إلا له في الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع لكثير من مسائل أهل السنة والدين مالا يخفى على أحد ممن عرف أحوالهم وتكلم فيهم، فعلم ما فيهم من صدق وعدل وإنصاف "[3].

---

(1) المصدر السابق ١٢/ ١٨ .

(2) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(3) درء تعارض العقل مع النقل ٢/ ١٠٠ .

القاعدة الثانية :

لا يجوز تكفير المسلم دون تقديم أدلة شرعية قاطعة لا تأويل فيها ، فكل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يدخل بذلك إلى أمة الإسلام، ومن ثبت إيمانه بيقين، لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة كل شبهة [1] .

يقول ابن تيمية رحمه الله : "ومن أصول أهل السنة أنهم لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه وتعالى : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [2] ، وقال تعالى : {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [3] .

ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى : {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ}[4] .

---

(1) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٦٦ .

(2) سورة البقرة ، الآية : ١٧٨ .

(3) سورة الحجرات ، الآية : ٩

(4) سورة النساء ، الآية : ٩٢ .

ويقول : "وكل من أظهر الإيمان ولم يكن منافقاً، فهو مؤمن له من الإيمان بحسب ما أوتيه من ذلك، وهو ممن يخرج من النار ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان"[1] .

وقال عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا ؟ فأجاب : "لا يكفر بمجرد الذنب، فإنه قد ثبت في الكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يجلد ولا يقتل، والشارب يجلد، والقاذف يجلد، والسارق يقطع، ولو كانوا كفاراً لكانوا مرتدين ووجب قتلهم. وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف"[2] .

وقال : فإن قيل "فإذا كان الإيمان المطلق بتناول جميع ما أمر الله به رسوله، فمتى ذهب بعض ذلك، بطل الإيمان، فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار، وسلبهم اسم الإيمان بالكلية كما تقول المعتزلة" .

قيل : أولاً ينبغي أن يعرف القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار، فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة

---

(1) المصدر السابق، ٥/ ٢٥٤ .

(2) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٧ .

من إيمان، واتفقوا أيضاً على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته [1] .

القاعدة الثالثة :

عدم تكفير العين إلا بالحجة القاطعة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم الحجة" ويقول : "وكنت أقول لهم إن ما ينقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضاً حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين" [2] .

ويقول في بيان ذلك : "لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه، فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له" [3] .

ويقول رحمه الله عن نفسه : "هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني إني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق

---

(1) المصدر السابق، ٧/ ٢٢٢، ٢٨٧، ٢٨٨ .

(2) المصدر السابق، ٣/ ٢٣٠ .

(3) المصدر السابق، ٢٨/ ٥٠٠ .

ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً تارة أخرى وعاصياً أخرى. وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العلمية [1] أي الاعتقادية".

القاعدة الرابعة :

الإمام ابن تيمية كما هي حال أئمة أهل السنة والجماعة جميعا، لا يكفرون أهل الأهواء والبدع من الفرق الإسلامية، بل يردون عليهم، ويبينون خطأهم أو انحرافاتهم.

يقول رحمه الله : "والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها، ولم يكن من الصحابة من يكفرهم، لا علي بن أبي طالب ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين"[2]

ويقول : "وكان السلف والأئمة، ولاسيما الإمام أحمد حذرين من تكفير أهل البدع كالخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة".

ويقول : "إن الإمام أحمد صلى وراء الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتحنوا الناس، وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد، بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم ويرى الإتمام بهم في

---

(1) المصدر السابق، ٣/ ٢٢٩ .

(2) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٧ .

الصلوات خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكرون ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم ولم يعلموا هم أنه الكفر"[1] .

ويقول : "ولم أعلم أحداً منهم نطق بتكفيرهم، بل هم متفقون على أنهم لا يكفرون في ذلك. ومن نقل عن أحمد أو غيره من الأئمة تكفيراً لهؤلاء أو جعل هؤلاء المرجئة من أهل البدع المتنازع في تكفيرهم فقد غلط"[2] .

وأما الشيعة الإثنى عشرية فهو لا يكفرهم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة يقول : "والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد .

ويقول : "مع أن كثيراً منهم ليسوا منافقين ولا كفاراً، بل بعضهم له إيمان وعمل صالح، ومنهم من هو مخطئ يغفر له خطاياه، ومنهم من هو صاحب ذنب يرجى له مغفرة الله"[3].

ويقول : "الإمامية في الجملة يعتقدون صحة الإسلام في الباطن"[4].

ويعترف بحسنات أهل الأهواء فيقول : "وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار، فاسلم على يديه

---

(1) المصدر السابق، ٧/ ٥٠٧، ٥٠٨ .

(2) المصدر السابق، ٧/ ٥٠٧، ٥٠٨ .

(3) منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية ٦/ ٣٠٢ .

(4) المصدر السابق، ٦/ ٤٣٨ .

خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خير من أن يكونوا كفاراً"[1].

القاعدة الخامسة :

إن من ترك الفرائض الشرعية وهو معتقد بفرضيتها، هل يكفر أم لا؟

أجاب على ذلك شيخ الإسلام بقوله : "تنازع العلماء في تكفير من يترك شيئاً من هذه الفرائض الأربع بعد الإقرار بوجوبها، فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وأما الفرائض الأربع فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة، فهو كافر، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك".

ثم بين أقوال العلماء بترك تكفير من أقر بها :

الأول : أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج، وإن كان في جواز تأخيره نزاع بين العلماء، فمتى عزم على تركه بالكلية كفر، وهذا قول طائفة من السلف وهي أحدى روايات عن أحمد.

---

(1) مجموع الفتاوي، ١٣/٩٦ .

الثاني: لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الإقرار بالوجوب، وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وهو إحدى الروايات عن أحمد.

الثالث: لا يكفر إلا بترك الصلاة، وهي الرواية الثالثة عن أحمد، وقول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعي وطائفة من أصحاب أحمد [1] .

القاعدة السادسة :

موضوع مخالفة الإجماع موضوع مهم، لأن الإجماع أحد مصادر الشريعة الإسلامية، فهل يكفر منكره؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "وتنازعوا في الإجماع هل هي حجة قطعية أو ظنية؟

والتحقيق أن قطعية قطعي وظنية ظني .

ثم قال : "إن الإجماع المعلوم يكفر مخالفة كما يكفر مخالف النص بتركه، لكن هذا لا يكون إلا فيما علم ثبوت النص به، وأما العلم بثبوت الإجماع في مسألة لا نص فيها، فهذا لا يقع، وأما غير المعلوم (أي غير القطعي) فيمتنع تكفيره" [2] .

---

(1) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٩، ٦١٠

(2) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٧٠

ومجمول القول : أن أهل البدع والأهواء يكفرون من خالفهم، غير أن أهل السنة والجماعة يتبعون الحق من ربهم، الذي جاء به الرسول، ولا يكفرون من خالفهم فيه، فهم أعلم بالحق وأرحم بالخلق [1] .

هذه الأحكام الشرعية التي ذكرها ابن تيمية ليست خاصة به وإنما تقول بها مذاهب أهل السنة والجماعة ولكن افردتُها بالكلام، لأن فتاوى ابن تيمية أكثر قبولاً عند شباب السلفية عامة، الذين عندما غلا جمع منهم دخلوا في مسلك الخوارج.

قال الإمام النووي في عدم تكفير أهل القبلة : "إعلم أن مذهب أهل الحق، أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع. وأن من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة، حكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ونحوه ممن يخفى عليه فيعّرف ذلك، فإن استمر حكم بكفره وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة" [2] .

وقال الإمام ابن أبي العز : "إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبير لا يكفر كفراً ينقل عن الملة، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي

---

(1) مجموع الفتاوى ١٣/ ٩٦

(2) شرح النووي على صحيح مسلم ، ١/ ١٥٠، دار الفكر ، بيروت ، ط ٣، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م

القصاص، ولا تجرى الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر ولا يستحق مع الكافرين[1].

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٢٤٢، ت عبدالرحمن عميرة، المعارف، الرياض، ط ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م

الفصل الثاني

مخالفة التكفيريين لعقائد أهل السنة

الفصل الثاني

مخالفة التكفيريين لعقائد أهل السنة

لقد تجاوز التكفيريون عقائد أئمة أهل السنة والجماعة جميعا، واتخذوا لأنفسهم مفتين من غير المختصين بأصول الشريعة وفروعها، يفتون لهم دون الاستناد إليها وإلى قواعدها ومقاصدها ومآلاتها، فكفروا نتيجة لهذا الجهل الكبير والانحراف الخطير، طوائف من المسلمين ودعاة الإسلام وعلمائه، والرجال الساهرين على أمن المجتمع، فسفكوا دماءهم، بل تجاوزوا إلى ما وراء ذلك من قتل العامة في الأسواق والطرقات من الرجال والنساء والأطفال.

ولنا أن نسأل فنقول :

أولاً : من هؤلاء الذين يفتون لارتكاب هذه الأعمال الدموية الخطيرة؟ إنهم ليسوا من الراسخين في العلوم الشرعية، ولا هم مطلعون على ما يجرى في هذه الدنيا داخلياً وإقليمياً وعالمياً، ولم يدرسوا أصول علماء الإسلام واستنباطاتهم الشرعية، ولا سيما في ظروف عاشوها كظروفنا، عندما ابتلوا كما ابتلينا باحتلال الكفار لبلاد الإسلام كما حدث في أيام شيخ الإسلام الإمام المجاهد ابن تيمية ومن عاصره من علماء الأمة الإسلامية.

قال الإمام الشاطبي في الاجتهاد المقبول وغير المقبول : "الاجتهاد الواقع في الشريعة ضربان، أحدهما الاجتهاد المعتبر شرعاً وهو الصادر عن أهله اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد .. والثاني غير المعتبر وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه، لأن حقيقته أنه رأى بمجرد التشهي والأغراض وخبط في عماية وإتباع للهوى، فكل رأى صادر على هذا الوجه، فلا مرية في عدم اعتباره، لأنه ضد الحق الذي انزله الله، كما قال تعالى : {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ}[1].

وقال : {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [2] .

وجميع الفتاوى الصادرة من التكفيريين هو إتباع للهوى، ولقد اخبر النبي ﷺ بذلك في قوله : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساء جهالاً فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» [3].

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٤٩

(٢) سورة ص، الآية : ٢٦

(٣) البخاري، ١/ ٣٣-٣٤، كتاب العلم باب كيف يقبض العلم

ثانياً: وعلى ذلك فهم أباحوا لأنفسهم قتل الأئمة والخطباء ودعاة الإسلام لمجرد أنهم دخلوا في العملية السياسية، كالانتخابات وغيرها، بعد الاحتلال الأمريكي، دون أن يسألوا أنفسهم لماذا فعلوا ذلك؟ وما دليلهم الشرعي؟ وما الحكمة من وراء تلك الدعوة؟ ثم هل أنهم ذهبوا إليهم وناقشوهم في ذلك؟ وهل أن اجتهادهم يستدعى التكفير قطعاً؟ وهل دعوهم إلى التوبة إذا ثبتت عليهم الحجة؟ وهل من حقهم الشرعي أن ينفذوا هم الحكم أم هذا من اختصاص الدولة المسلمة؟

لم يفعلوا كل ذلك !!

وإنما وقفوا أمام بيوتهم ومساجدهم، وبمجرد أنهم خرجوا منها، أطلقوا عليهم النار، فقتلوهم دون سؤال ولا مناقشة ولا دفاع ولا دعوة إلى التوبة ودون التأكد من فعلهم، هل هو قطعاً حرام أم لا؟

على أن من المعلوم في شريعة الإسلام أن المرتد صراحة لا يقتل وإنما يناقش في ذلك مناقشة مستفيضة من قبل علماء الشريعة، لأن من الجائز أنه لا يعلم أن ما يقوله أو يفعله كفر صريح لا تأويل له، أو تظهر من المناقشة أدلة شرعية قاطعة يتراجع بموجبها ويتوب.

ثم إنه إن لم يتراجع وأصرّ على موقفه يستتاب ثلاثة أيام، ثم يقتل بعد ذلك بحكم قضائي قاطع تنفذه أجهزة الدولة، لا أفراد بنبرون هنا

وهناك، وهذا حتى لا يحدث فوضى في الاعتداء على الحياة الإنسانية دون ضابط.

إن الإنسان مكرم عند الله سبحانه وتعالى بنص الآية الكريمة : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [1].

والإنسان المسلم في قمة هذا التكريم لأنه يؤمن بالله تعالى ويوحده توحيداً خالصاً، ويؤمن برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ﷺ، عقيدة وشريعة وسلوكاً، ويعبده حق العبادة.

وإذا كان عالماً، فله فضل زائد في هذا التكريم، لأنه يبلغ رسالة الإسلام إلى الناس، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

هب أن مسلماً ارتكب الذنوب الكبيرة كشرب الخمر والزنا وما إلى ذلك، فهل يخرجه عن الإسلام؟

لا : كما سبق من كلام شيخ الإسلام مما نقله عن أهل السنة والجماعة كافة والدليل من القرآن قوله تعالى : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [2].

---

[1] سورة الإسراء، الآية : ٧٠

[2] سورة فاطر، الآية : ٣٢

إذن الظالمون المرتكبون للذنوب حتى الكبيرة هم من الأمة المصطفاة لأنهم يقولون : لا إله إلاّ الله صدقاً وعدلاً، فغدت دماؤهم وأموالهم محرمة حرمة قطعية، وقد ثبت هذا التحريم بأحاديث صحيحة كثيرة، منها قول النبي ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث، الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» [1] .

قال الشوكاني : "إعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه، إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنه من قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما" [2] .

فكيف بعلماء الإسلام في العراق الذين رفضوا الاحتلال على منابر مساجدهم ودعوا الناس إلى مقاومته، يقتلون أمام مساجدهم وبيوتهم، لمجرد أنهم دعوا أهل السنة إلى الانتخابات والانخراط في سلك الجيش والقوى الأمنية والوظائف الحكومية، من أجل ألا تضيع حقوقهم وألا يختل توازن المجتمع العراقي، لتنفرد طائفة واحدة بالحكم فتقصى أهل

---

(1) صحيح البخاري، ح ٨، ص ٣٨. كتاب الديات، باب قوله تعالى أن النفس بالنفس . وصحيح مسلم ، ح ٢/ ١٣٠٢ . كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم

(2) إيثار الحق على الخلق، ص ٤٢

السنة عن التقدم في مؤسسات الدولة وشؤون الحياة، ولكي لا يتجزأ العراق نتيجة لهذه السياسة التي بذر بذورها الاحتلال.

وأما دعاة الإسلام الذين رفضوا الاحتلال في أجهزة قنواتهم الإعلامية وقاوموه مقاومة سياسية على جميع الأصعدة، سواء في مجلس الحكم أو المجلس الوطني أم مجلس النواب، مع تأييدهم للمقاومة المسلحة وحقها في الدفاع عن بلدها، وقد عرفوا سابقاً ولاحقاً في المجتمع العراقي بأنهم يدعون إلى تحكيم الشريعة الإسلامية ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحاولون أن يصوغوا جيل الشباب صياغة إسلامية ربانية رفيعة.

فبأي دليل شرعي قتلهم التكفيريون في العراق؟ ألانهم دعوا إلى الدخول في العملية السياسية لمقاومة مشاريع الاحتلال في العراق، والوقوف أمام حكم طائفة واحدة، حتى لا تضيع حقوق الطوائف الأخرى، فيجزأ العراق وينتهي الأمر إلى حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس.

لو عرضنا ما ارتكبه التكفيريون من الجرائم بحق علماء ودعاة وشباب الإسلام، بل وعوام أهل السنة والشيعة، على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من أحكام التكفير لحصلنا على الحقائق الآتية :

١- إن الذين قتلوهم من العلماء والدعاة، كانوا مؤمنين، إيمانهم ثبت للناس بأدلة قطعية، سيرهم معروفة عند أهل الإيمان وعوام المسلمين

في مناطقهم، وهو لم يوالوا المحتلين، لا في دينهم ولا في سياساتهم ولا في احتلالهم لبلدهم، بل اظهروا على المنابر وقنوات الإعلام تأييدهم للمقاومة الشرعية.

ثم هل التكفيريون قتلوا بأدلة شرعية قاطعة أظهروها للناس، وهل صدرت فتاواهم من علماء معروفين بالرسوخ في علوم الشريعة؟ وهل اتصلوا بهم قبل قتلهم وبينوا لهم أنهم مرتدون؟ وهل سمعوا ردودهم على هذا الاتهام؟ كل هذا لم يحصل وإنما قتلوهم غيلة وهم اعزل من كل سلاح أمام بيوتهم ومساجدهم.

٢- ثم لو فرضنا أن هؤلاء الذين قتلوهم من أهل الكبائر، فهل جوز مجتهدوا الأمة ومنهم الإمام ابن تيمية قتلهم. فمن المعلوم أن أهل الكبائر مسلمون دماؤهم وأموالهم حرام، إلا إذا ثبت عند الإمام المسلم أنهم ارتكبوا ما يوجب القصاص أو تنفيذ حد من حدود الله عليهم. وهذا حق من حق الإمام وليس من حق جهة أخرى، يتم حسب مرافعات شرعية واضحة وأدلة قاطعة دامغة، أمام قضاء إسلامي عادل معترف به، من لدن علماء الإسلام والدولة الإسلامية التي تطبق شرع الله سبحانه وتعالى.

إذن فهؤلاء التكفيريون الذين ارتكبوا هذه الجرائم اثبتوا بعملهم هذا أنهم ليسوا من أهل السنة والجماعة، لأنهم لم يلتزموا بمذاهبهم الفقهية ولا بأصولهم الاعتقادية. فهم إذن سلكوا مسالك الخوارج واتبعوا

آراءهم المبتدعة الضالة التي ردها إجماع أمة الإسلام، لأنهم علموا أن النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما قال عن الخوارج : «يحقر أحدكم صلاته بصلاتهم وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية .... الحديث» [1] .

إذن مصطلح الخوارج لا يختص بمرحلة تاريخية معينة، إذ يمكن أن تتكرر هذه الظاهرة بالأوصاف التي بينها النبي ﷺ، فكل من انطبقت عليه تلك الأوصاف، هو والخوارج القدماء سواء، لأنهم جميعاً يشتركون في الخروج من مبادئ الدين وإجماع علماء المسلمين، ولذلك فالصحابة الكرام يصفونهم بأنهم شرار خلق الله وقالوا : "إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين [2] .

وكذلك قال الإمام الشاطبي عنهم : "ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من المرمى، لأن رسول الله وصفهم بأنهم يقرأون القرآن لايتجاوز تراقيهم، يعنى والله أعلم أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم، لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى

---

[1] مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٤٧٢

[2] فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١٢/ ٣٥٠

القلب لم يحصل به فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف المسموعة فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم[1].

وتطبيق ذلك يظهر من الرواية الآتية :

"دخل الخوارج قرية فوجدوا فيها عبدالله بن خباب بن الأرت رضي الله عنه، فقالوا: هل سمعت من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله ﷺ، قال : نعم سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي، قال : فإن أدركت ذلك فكن عبدالله المقتول، قالوا : أأنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ، قال : نعم، قال : فقدموه على ضفة النهر، فضربوا عنقه، وبقروا أم ولده عما في بطنها"[2].

والخوارج من جهلهم لمعاني كلام رسول الله ﷺ ارتكبوا هذه الجريمة البشعة. والمعنى يا عبدالله ستكون فتنة لا تشترك فيها بقتل المسلمين، حتى لو كنت أنت المقتول، أي إذا خيرت أن تكون القاتل أو المقتول فكن المقتول.

---

(1) الاعتصام، ٢/ ٦٩١، ت/ سليم بن عبدالإله، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

(2) رواه أحمد بن حنبل، ٥/ ١١٠. دار الدعوة، اسطنبول، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ضمن موسوعة السنة، الكتب الستة

ومناظرة ابن عباس رضي الله عنهما، لهم تبين مدى جهل هؤلاء لفهم النصوص، قال : "قلت اخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله وصهره والمهاجرين والأنصار؟ قالوا : ثلاثا، قلت : ما هن؟ قالوا : أما احداهن فإنه حكم الرجال في أمر الله، وقد قال الله تعالى : {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [1]، وما للرجال وما للحكم. فقلت : هذه واحدة !! وقالوا : وأما الأخرى فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، فلئن كان الذي قاتل كفاراً لقد حلّ سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلّ قتالهم. قلت : هذه ثنتان، فما الثالثة؟ قالوا : أنه محا نفسه عن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين. قلت : أعندكم سوى هذا؟ قالوا حسبنا هذا، فقلت لهم : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة نبيه ﷺ ما يُردُّ به قولكم. قالوا : نعم! فقلت : أما قولكم حكم الرجال في أمر الله فأنا أقرأ عليكم ما قد رُدَّ حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، في أرنب ونحوها من الصيد، فقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ} [2]. فناشدتكم الله : أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟! وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصيِّر ذلك إلى الرجال. وفي المرأة

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ٥٧

(٢) سورة المائدة، الآية : ٩٥

وزوجها، قال الله عزّ وجل : {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا}[1]. فجعل الله حكم الرجال سنة مأمونة. أخرجت من هذه. قالوا : نعم. قال: وأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم. أتسبون أمكم عائشة، ثم تستحلون منها ما يستحل من غيرها؟! فلئن فعلتم لقد كفرتم وهي أمكم، ولئن قلتم: ليست أمنا لقد كفرتم!!! إن الله يقول : {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}[2]. فأنتم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة. فنظر بعضهم إلى بعض، قلت : أخرجت من هذه؟ قالوا : نعم . وأما قولكم : محا اسمه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بم ترضون وأريكم. قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب. فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين، اكتب يا عليّ : هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله، فقال المشركون : لا والله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله : الله يعلم أني رسول الله، اكتب يا عليّ هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله، فوالله لرسول الله خير من على وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه.

قال ابن عباس رضي الله عنه : " فرجع من القوم ألفان وقتل سائرهم على ضلالة "[3].

---

(1) سورة النساء ، الآية : ٣٥

(2) سورة الأحزاب، الآية : ٦

(3) مستدرك الحكم، ٢/ ١٥٠-١٥٢

وخلاصة سماتهم ومظاهرهم العامة التشدد في الدين على النفس والتعسير على الآخرين والتعالم والغرور وتصدر الأحداث، وقلة الصبر وضعف الحكمة والاستبداد بالرأي وتجهيل الآخرين وشق عصا الطاعة والطعن في العلماء وسوء الظن بهم وتحقيرهم والتنفير منهم والحدة في التعامل مع الآخرين [1].

هذا بالنسبة لما فعله التكفيريون بأهل السنة.

أما الشيعة فقد كفروهم جميعاً، خلافاً لفقه أهل السنة والجماعة في عدهم من أهل القبلة. فهم مسلمون كسائر المسلمين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويؤدون فرائض الإسلام، مؤمنهم مؤمن وفاسقهم فاسق، كسائر المسلمين، لا يجوز سفك دمائهم واستباحة أموالهم، وتنفيذاً لتكفيرهم ذلك قاموا بتفجير أسواقهم ومواكبهم ومساجدهم وحسينياتهم، فقتلوهم على الهوية في مناطق كثيرة، ولاسيما في جنوب بغداد إلى النجف وكربلاء، وكانوا يريدون إشعال نار حرب أهلية بين السنة والشيعة كما وردت في رسالة الزرقاوي التي نشرت في أواخر عام ٢٠٠٣م في العراق.

ولا يشك العراقيون أن منظمات معادية للإسلام والمسلمين قد دخلت في معمعة التفجيرات والاغتيالات، فارتكبت مجازر هنا وهناك من

---

(١) الخوارج بين الأمس واليوم، صالح بن سالم العفاني، ص ٥٠، ط ١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، الرياض

أجل دفع العراقيين إلى أتون حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، ومن هنا فإن كل الدلائل تشير إلى أن منظمات استخبارية خارجية تعاونت مع بعض الأجهزة الرسمية المخترقة، ففجرت مرقد الإمام على الهادي في سامراء، فبدأت الميلشيات الشيعية الهجوم الكاسح على المناطق السنية والمختلطة في بغداد والبصرة ومدن أخرى، فقتلت ألوفا من شباب السنة البريئين وهجرت عشرات الألوف من الأسر، وأحرقت واغتصبت أكثر من مائتي مسجد في بغداد وغيرها من المدن.

دفعت إلى ذلك فتاوى التكفير التي صدرت على أهل السنة عامة من لدن بعض المرجعيات الشيعية في قم والنجف منها فتوى الشيرازي في قم التي كان لها تأثير كبير في إشعال هذه الفتنة الكبيرة، فإذن في هذه الحالة الخطيرة لابد من التثقيف.

وهذا التثقيف يجب أن يشمل المساجد والحسينيات ويبدأ من مدارس الروضة إلى الابتدائية إلى الثانوية حتى الجامعات، ويشمل كذلك المؤسسات الثقافية والقنوات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية، لإعادة الأمة إلى خطها الإسلامي الصحيح والقضاء على الآثار المروعة للدماء التي أريقت في العراق قبل الاحتلال والسنوات التي تلت الاحتلال.

ومجمل القول، أن هنالك ضوابط شرعية لتكفير المسلم بينها علماء الإسلام تتلخص كما مرّ بنا بالأمور الآتية :

١- تكفير المسلم يحتاج إلى أدلة شرعية قاطعة، لا يتطرق إليها أي تأويل.

٢- أن يصدر حكم تكفير المسلم من العلماء الراسخين المعروفين بالعلم والورع والتقوى.

٣- التأكد من امتناع موانع التكفير مثل الجهل والخطأ والتأويل.

٤- أن تنفذ الحكم الشرعي الدولة الإسلامية، بقضاء شرعي عادل بعد مناقشة المتهم مناقشة مستفيضة، وإعطائه بعدها ثلاثة أيام [١] أو أكثر حسب آراء الفقهاء[٢] للتفكير والتراجع والتوبة.

---

(١) "يروى الشافعي عن عبدالله بن أبي القارئ عن أبيه أنه قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رجل من قبل أبي موسى يسأله عن الناس فأخبره، ثم قال : هل كان فيكم من مغربة خبر. فقال: نعم . رجل كفر بعد إسلامه، قال : فما فعلتم به، فقال : قدمناه فضربنا عنقه، قال عمر : فهلا حبستموه ثلاثاً وأطعمتموه كل يوم رغيفاً، واستتبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله، اللهم إني لم احضر ولم آمر ولم أرض إذ بلغني"، ابن تيمية، الصارم المسلول، ٣٢٣

(٢) "وعن أبي موسى، قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا ومعاذ إلى اليمن، فقال : فأتى يوم – أي معاذ بن جبل – وعندي يهودي قد كان مسلماً فرجع عن الإسلام إلى اليهودية، فقال : لا انزل حتى اضرب عنقه، قال حجاج، وحدثني قتادة أن أبا موسى كان قد دعاه أربعين يوماً، المصنف لابن أبي شيبه، ٦/ ٤٤٠

الفصل الثالث

مصادر إنتاج التكفيريين

الفصل الثالث

مصادر إنتاج التكفيريين

١) المنهج الأحادي الذي يحدد ثقافة حامله بطريق واحد أو مذهب واحد، سواء في مسائل تفسير فروع العقائد الإسلامية أم في المسائل الفقهية الاجتماعية، فضلاً عن إعادة الصراعات الفكرية في إطارها القديم، ولاسيما في القضايا التي تنازع فيها أهل القبلة كالشيعة والمعتزلة والاشعرية والماتريدية والجهمية والمرجئة وغيرها من الفرق الإسلامية.

إن عدم الاطلاع على جذور المذاهب الأخرى وأدلتها يولد تعصباً يشتد مع الأيام، ويضيّق صدر المتلقي، مع سماعه المتواصل لألفاظ البدعة والضلالة والشرك والكفر والفرق الضالة والفرق الناجية وما أشبه، دون إطلاقها في مضامينها العلمية الصحيحة.

بينما الدراسة الواعية لجميع المذاهب العقيدية والفقهية وأدلتها وظروف ظهورها، تضع العقلية المسلمة أمام مساحة كبيرة، تتحرك فيها بحرية منضبطة، فحينئذ تختار المنهج الوسطي المعتدل في فهم الدين، أصوله وقواعده ومقاصده.

ويحاول صاحبها أن يفهم أمور الصراع مع القريب والبعيد بعقلية إسلامية عصرية مرنة، فيتخذ قراراته في ضوء المصالح والمفاسد والمقاصد والنظر في المآلات، ويتخلص من الوقوف الجامد أمام ظواهر النصوص، دون التعمق في فهمها في إطار تلك الأصول، ودون محاولة رفع التعارض بينها وبين نصوص أخرى.

إن المنهج الأحادي السلفي الضيق في الظروف التي تحدثنا عنها، هو الذي قاد إلى تكوين شباب جيل ما يسمى بالسلفية الجهادية، الذين حرفوا النصوص، وفهموا مشكلات العالم الإسلامي المعقدة، دون امتلاك علم راسخ بالشريعة، وفهم عميق بتطور الحياة الإسلامية المعاصرة، فانتهوا إلى منهج الخوارج، عالمين به أو غير عالمين، فكفروا المجتمع الإسلامي، وتمردوا حتى على اجتهادات الفقهاء في المدرسة الحنبلية، الذي هو أحد مذاهب أهل السنة والجماعة، فضلاً عن خروجهم الحاسم على فقه الإمام ابن تيمية والعلامة ابن قيم الجوزية في مثل هذه المواقف الخطيرة.

إن أصحاب هذا المنهج السلفي الجهادي المزعوم أوجدوا كوارث للأمة الإسلامية نتيجة لإتباعهم منهج الخوارج، ساعدت على هذا التحول من المنهج السلفي المعتدل إلى المتشدد ثم منهج الخوارج مظالم الدول الاستعمارية في بلاد الإسلام ومناصرتها للحكام

الظالمين الذين حكموا شعوبهم بالحديد والنار، وحالوا بينها وبين الالتزام بدينها وتطبيق شريعة ربها،

فهؤلاء ظنوا أن طريق تخليص بلادهم من تلك المظالم هو تكفير الحكام وشن المقاومة المسلحة ضد مؤسساتهم، وقتل كل من يمشي في ركابهم، ونشر الخراب والدمار في المجتمع الإسلامي عبر الاغتيالات والتفجيرات.

إنهم يجهلون تماماً أن الجهاد لم يشرّع لتوجيهه إلى داخل المجتمعات الإسلامية، وإنما شرع لدفع الأعداء المعتدين على البلاد الإسلامية.

وهذه الحركات داخل العالم الإسلامي سببت الخراب والتدمير وإزهاق أرواح بريئة على جميع المستويات وثبتت الأنظمة الجائرة. وما حدث في الجزائر ومصر والعراق والأردن ولبنان وغيرها من بلاد الإسلام خير شاهد على ما نقول.

الجهاد في المجتمع الإسلامي هو جهاد اللسان والقلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والقيام بنشاطات سلمية كالعصيان المدني والمظاهرات لغرض الإصلاح على الأنظمة المنحرفة.

لأن الصدامات المسلحة في المجتمع الإسلامي تستنفذ قوى المجتمع وطاقاته، ولا تكون إلا في صالح أعداء الأمة في الخارج والحكام في

الداخل. والتدرج في الإصلاح والتغيير هو المنهج المنسجم مع نظام الكون. والطفرات تهدم ولا تبنى وتنتج الدمار والخراب.

٢) قد يكون منهج الحركة الإسلامية منهجاً وسطياً عصرياً مقاصدياً معتدلاً، تدقق في حسابات الإقدام والإحجام، وتؤمن بالإصلاح التدريجي ولا تخطط للصدام مع الحكام. غير أن مصالح القوى الطاغوتية الخارجية تفرض على مراكز القوى الداخلية التخطيط لضربها والقضاء عليها، لأنها لا تستطيع أن تخرقها من الداخل لتخضعها إلى هيمنتها. أو أن خوف المسيطرين على الحكم في الداخل على بقائهم، لتحقيق مصالحهم الذاتية، يدفعهم إلى التضييق على الحركة الإسلامية وجرها إلى الصدام معها، من أجل تقليم أظفارها أو إلغائها أو تشويه سمعتها أو إدخالها في محن طويلة، في ظل نظام استبدادي غاشم، فيبدأ باعتقالات جماعية وتعذيب وحشي، وتصفيات جسدية لقادة تلك الحركة، الأمر الذي يدفع بعض أبناء الحركة إلى ردود أفعال عنيفة، فيكفرّون هؤلاء الطغاة الذين يعذبهم بلا رحمة ولا إنسانية ولا اعتبار لأية قيمة أخلاقية، فينقلون بعد ذلك إلى تكفير المجتمع الذي رضي بذلك الطغيان ورضخ له، كما وقع في مصر عندما ظهرت التكفيرية في السبعينيات من القرن الماضي، من داخل السجون، وانتهت إلى تبني المنهج السلفي الجهادي المغلق ضد الدولة والمجتمع.

والتكفير هنا لم ينتج عن خلل في المنهج، وإنما نتج عن معاملة الحكام الهمجية لجيل الحركة الإسلامية المتجسدة في جماعة (الأخوان المسلمين) والدليل أن قادة الحركة الإسلامية في مصر وهم في داخل السجون لم يفقدوا توازنهم مع ما عانوا من التعذيب الوحشي، بل سرعان ما أعادوا معظم شبابهم إلى الخط الإسلامي الوسطي المعتدل [1] .

إن المنهج الأول يحتاج إلى إعادة النظر في اتجاهه الأحادي والعودة إلى المنهج الوسطي الجامع في فهم الإسلام، للتخلص من الانغلاق والتعصب وتكوين عقلية مرنة، لا تحتكر الحقيقة لنفسها، وتؤمن بتعدد مصادر الاجتهاد وتنطلق إلى فهم عصرنا المعقد فهماً واعياً، كي لا يرتكن إلى الماضي التاريخي البشري، ليعيق حركة الحاضر والمستقبل.

وتلك العودة تتحقق بتربية الأجيال تربية إسلامية وسطية معتدلة من الابتدائية حتى الجامعات، وترسيخها في قلوب وعقول أبنائها في المساجد والمؤسسات الثقافية والقنوات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية.

وحينئذ لا يستطيع أحد أن يقود الأجيال إلى المنهج التكفيري الذي يحرم المجتمع من اقتطاف ثمرة الإسلام اليانعة، ويدخله في اتون صراعات

---

[1] انظر دعاة لا قضاة، حسن الهضيبي .

دموية ويقدم للعالم نموذجاً باهتاً مظلماً عن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين.

وأما المنهج الإسلامي الوسطي، فعليه أن ينشر بين أجياله الفقه المقاصدي والثقافة الإسلامية الوسطية الجامعة، كي لا يستطيع التكفيريون أن يختطفوا أحداً من أبنائه، فيسوقوه إلى المنهج المغلق الخارجي السقيم في فهم النصوص، والوقوف عند ظواهرها المبتورة.

على أنه لا يجب أن يفهم أحد أنني أقصد بالمنهج السلفي الأحادي، منهج الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، الذي كان منهجاً وسطياً مقاصدياً بعيداً عن الاتجاه الأحادي المتشدد المغلق، وإنما كان قائماً على إنزال النصوص على الوقائع من خلال أصول وقواعد ومقاصد الشريعة الإسلامية ومآلاتها.

على أنه لمنصف أن يقول، أنك قلت : إن المنهج الأحادي المغلق سبب دفع جيل من الشباب إلى طريق التكفير، بينما نجد أن كثيراً من علماء السلفية يستنكرون هذه الأعمال ولا يقرونها، ولا يتسرعون في تكفير الناس وهم ملتزمون بأقوال علماء أهل السنة والجماعة القدماء والمحدثين.

وفي جواب ذلك أقول :

نعم أن علماء المذهب الحنبلي على أقسام في هذه المسائل :

- فالعلماء المحققون منهم المطلعون على مذهب أهل السنة والجماعة، والملتزمون بأقوال الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية والعلامة ابن القيم والشيخ محمد عبدالوهاب رحمهم الله، لا يقولون بما يقول به التكفيريون من أقوال الخوارج التي لا أساس لها في شريعة الإسلام.

يقول الشيخ محمد الصالح بن عثيمين رحمه الله : فالحكم بالتكفير والتفسيق ليس إلينا، بل هو إلى الله تعالى ورسوله، فهو من الأحكام الشرعية التي مردها إلى الكتاب والسنة، فيجب التثبت فيه غاية التثبت، فلا يكفر ولا يفسق إلا من دل الكتاب والسنة على كفره وفسقه. والأصل في الظاهر العدالة، وبقاء إسلامه وبقاء عدالته حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي ولا يجوز التساهل في تكفيره أو تفسيقه لما فيه من محذورين عظيمين :

الأول : افتراء الكذب على الله تعالى في الحكم والمحكوم عليه.

الثاني : الوقوع فيما نبز فيه أخاه إن كان سالما منه، مع وجوب النظر قبل الحكم على المسلم بكفر أو فسق في أمرين :

أ- دلالة الكتاب والسنة على أن هذا القول أو الفعل موجب للكفر أو الفسق.

ب- انطباق هذا الحكم على القائل المعين أو الفاعل المعين بحيث تستوفى شروط التكفير والتفسيق في حقه وتنتفي عنه موانعه[1] .

---

[1] الإرهاب، للدكتور عادل عبدالجبار، ط ١، ص ١٦٣، الرياض

وفي هذا الباب ألف العالم السلفي الشيخ أبي الحسن مصطفي بن إسماعيل السليماني، كتاباً عالج فيه وجوه هذه الفتنة الخارجية الجديدة بعنوان " فتنة التفجيرات والاغتيالات: الأسباب – الآثار – العلاج "، فحرمها تحريماً قاطعاً بأدلة متنوعة شرعية قاطعة.

- وقسم آخر منهم الذين لم يتعمقوا في أقوال علماء أهل السنة، ولم يدركوا تماماً حركة العصر، انزلقوا في موضوع التكفير في بداية الأمر، وساندوا بفتاواهم التكفيريين، ثم لما وجدوا الثمار المرة مما فعلوا من القتل والاغتيالات والتفجيرات والعمليات الانتحارية، تراجعوا عن فتاواهم، مثال ذلك الشيخ ناصر بن محمد الفهد، حيث إنه لما رأى نتائج التفجيرات المفجعة في مجمع (المحيا) من هدم المسجد ونكبة العوائل وإزهاق الأرواح البريئة، أعلن أنه يبرأ إلى الله من نتائج ما قال وما افتى وقال إن هذه الأمور، محرمة، وأن هذه الأعمال ليست جهاداً في سبيل الله، وأن الذي يفجر نفسه ليس شهيداً [1].

وذكر منكرات هذه التفجيرات ألخصها على الوجه الآتي:

المنكر الأول : إن فيه قتلاً لنفوس مسلمة والله يقول : {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} [2] ويقول الرسول ﷺ قال : «لا يزال الرجل في

(1) الإرهاب، ٢٢١ وما بعده

(2) سورة النساء، الآية : ٩٣

فسحة من دينه حتى يصيب دماً حراماً» ويقول : «ولزوال الدنيا وما عليها أهون عند الله من قتل رجل مسلم» فكيف بقتل مجموعة.

المنكر الثاني : قتل المعاهدين والمستأمنين، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد منها مسيرة أربعين عاماً» وقال : «إن ذمة المسلمين واحدة يسعها بها أدناهم فمن اخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» .

المنكر الثالث : قتل النساء والصبيان، ففي حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما « أن الرسول ﷺ مرّ على امرأة كافرة مقتولة في غزوة بين المسلمين والكفار وأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان» فكيف بنساء وصبيان المسلمين والمستأمنين.

المنكر الرابع : إتلاف الأموال المحترمة شرعاً، وحفظ المال يعد من الضروريات الخمس التي أتت الشرع بحفظها. وثبت في الصحاح والسنن والأسانيد عن أبي بكر وعائشة وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس أن الرسول ﷺ قال : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهر هذا في بلدكم هذا» .

المنكر الخامس : أنها روعت المسلمين، وذكر عن رسول الله ﷺ إنه نهى عن ترويع المؤمن، بل أعظم من ذلك ما ثبت عن أبى هريرة رضي

الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أشار الرجل على أخيه بحديدة لعنته الملائكة» فكيف يكون نصيب من قتل واتلف وروع.

المنكر السادس : أن هذا فيه إخلالاً بالأمن وهو من أعظم نعم الله على البشر بعد نعمة دين الإسلام، لذلك امتن الله تعالى به على قريش فقال سبحانه: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[1] وقال تعالى : {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}[2] وهذه التفجيرات جعلت الناس يخافون على أنفسهم، بل أنها روعت الآمنين في بيوتهم.

المنكر السابع : أنها شوهت صورة الجهاد في سبيل الله، فهي تقتل المسلمين وتقتل نفوساً معصومة.

المنكر الثامن : أن انتشار أخبار هذه التفجيرات سلطت أعداء الإسلام على الإسلام بتشويه صورته في العالم.

المنكر التاسع : أنها أضرت بمشاريع خيرية كبرى، لأن كثيراً من التجار وأهل الخير أحجم عن التبرعات مخافة أن يؤول المال إلى مثل ما صار إليه تلك الأعمال أو تستخدم في دعمه.

---

(١) سورة النمل، الآية : ٨٦

(٢) سورة قريش، الآية : ٤

المنكر العاشر : شوهت صورة الملتزمين الآن كثيراً، فمن الناس إذا رأى الرجل الملتحي يعتقد أن في جيبه قنبلة أو أنه يبحث عن نفس يقتلها، وصارت صورته أنه سفاك للدماء، وأنه يريد فقط أن يهدم البيوت على ساكنيها [1].

أقول زيادة على ما ذكره الشيخ في مراجعاته لآرائه :

١- إن هذا الأسلوب من تكفير الناس والحكام والقوى الأمنية والاغتيالات والتفجيرات في الأماكن العامة، الحق ضرراً بالغاً بالمشروع الإسلامي الذي يريد صياغة الأمة صياغة إسلامية، بحيث ينتهي إلى تنفيذ شريعة الإسلام في دولة إسلامية عصرية، تحقق العدل والرخاء، وتدافع عن المظلومين، وتنقذ المقدسات الإسلامية في فلسطين من أيدي الصهاينة المعتدين، وتعيد للأمة كرامتها وعزتها.

لأن هذه النماذج المنحرفة المعتدية على حقوق الإنسان في داخل العالم الإسلامي وخارجه، شوهت هذا المشروع الإسلامي المعتدل المبني على حقائق الإسلام ومقاصده في بناء المجتمع والدولة والحضارة، بحيث قوى الدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي الذي كاد أن يضعف وينتهي، حيث ارتفع صوت العلمانيين من جديد،

---

[1] الإرهاب، ص ٢٢١ وما بعدها .

ليقولوا أهذا هو الإسلام؟ إذن هو دين العنف والإرهاب والتخويف. وبذلك ارتكب هذا المنهج بسلوكه الهدام جرائم كبرى بحق الإسلام ودعاة الإسلام في العالم.

٢- لقد كان وضع الإسلام طبيعياً في كل مكان، بل يدعو رئيس وزراء السويد عام ١٩٨٤م إلى أن يتخذ السوديون عام ١٩٨٥م مناسبة لأجل التعريف بدين الإسلام في المؤسسات الثقافية والجامعات، واتجه العلماء والباحثون إلى السويد وعقدوا ندوات والقوا محاضرات يعرفون فيها بدين الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً وحضارة، وكان من الممكن أن تتوسع دائرة هذه الندوات في أوربا كلها تدريجياً، وتأتي بخير كثير مع وجود جاليات إسلامية كثيرة في البلاد الأوروبية والأمريكية كان يمكن أن تقوم بحملات تثقيفية.

غير أن أعمال العنف هذا لما اخترقت البلاد الغربية بدءً بتفجير السفارات في أفريقيا إلى ضرب البرجين في نيويورك، إلى تفجير محطات القطار في باريس وأسبانيا ولندن، وإلى ما جارى في العراق من المجازر، وما جرى في السعودية وفنادق الأردن وغيرها، قد أعطت فرصة تاريخية كبيرة لمراكز القوى الصهيونية والصليبية في مهاجمة الإسلام ومحاصرة دعوته في الغرب، والتضييق الكبير على الجاليات الإسلامية.

إن محاصرة الجاليات الإسلامية في الغرب، من الناحية الأمنية والمالية والاجتماعية انصبت في صالح اليهود الصهاينة ولاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية، لأن نمو الجالية الإسلامية في جميع مجالات الحياة، كان يمكن أن يضع حداً للسيطرة الصهيونية على مراكز القرار بمرور الزمن، وكان يؤدي حينئذ إلى وقوف الولايات المتحدة في الأقل على الحياد في موضوع فلسطين وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني المظلوم[1].

٣- إن سياسة التكفير وإتباع سبل العنف الدموي كانت سبباً مباشراً لإسقاط حكم طالبان بعد حادثة تفجير البرجين في نيويورك، وكان أيضاً من أسباب الهجوم على العراق وتدمير قوته العسكرية والأمنية وإثارة الفوضى والصدام فيه وتحطيم بنيته الحضارية التحتية، وقتل أكثر من مليون عراقي فيه، من الرجال والنساء والأطفال، وتهجير الملايين من ديارهم في الداخل والخارج.

كل هذه الحوادث المدمرة أخلت بتوازن المنطقة وأثارت فيها حرباً طائفية، ولم يستفد من كل هذه الصدامات والحروب إلا الكيان الصهيوني، مشروعاً استيطانياً للسيطرة على قيادة المنطقة والقضاء

(١) راجع كتاب (القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب)، كتاب دار البيان، للدكتور محمد بن عبدالله السلومي، حيث بحث هذا الأمر مستفيضاً وقدم شواهد كثيرة على ذلك .

على المشروع العربي والإسلامي في النهوض، وإلا جمهورية إيران، تخطيطاً استراتيجياً للتغلغل في العراق وبلاد الشام والخليج.

٤- إن سياسة العنف التي اتبعها التكفيريون في مصر والجزائر والمغرب والسعودية والعراق والبلاد الغربية، فتحت الباب مشرعة لمنظمات سرية عالمية معادية للإسلام والمسلمين، كي يدخلوا حلبة القتل والتفجيرات، فحسب كل ذلك على الجماعات التكفيرية، ثم هوجم بسببه الإسلام والمسلمين وأعطت تلك السياسة مسوغاً واسعاً لوضع الإسلام في قفص الاتهام، وتوجيه السهام المسمومة إليه من كل مكان.

وكذلك تراجع الشيخ على الخضير عن فتاواه السابقة في موضوع التكفير، يقول فعل ذلك من أجل إبراء الذمة أمام الله سبحانه وتعالى[1].

وأما المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي في دورته السابعة عشرة المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة ١٩-٢٣/ ١٠/ ١٤٢٤هـ الموافق ١٣-١٧/ ١٢/ ٢٠٠٣م، فقد نظر في موضوع التفجيرات والتهديدات الإرهابية (آثارها - حكمها الشرعي - وسائل الوقاية منها) حيث قدمت فيه أبحاث فقهية من قبل كبار فقهاء العالم الإسلامي، انصبت كلها على : (تحريم التخويف والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور

(١) الإرهاب، مصدر سابق، ص ٢٣٠ .

الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف والتهديد، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم إلى الخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق العامة والأملاك العامة والخاصة أو تعريض أحد الموارد الطبيعية للخطر، فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عنها. قال تعالى : {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[1] .

وأرجع المجمع أسباب هذا الإرهاب إلى:

١) إتباع الفتاوى الشاذة والأقوال الضعيفة الواهية، وأخذ الفتاوى والتوجيهات ممن لا يوثق بعلمه ودينه والتعصب لها.

٢) التطرف في محاربة الدين وتناوله بالتجريح والسخرية والاستهزاء والتصريح بإبعاده عن شؤون الحياة والتغاضي عن تهجم الملحدين والمنحرفين وتنقصهم لعلمائه أو كتبه ومراجعه وتزهيدهم في تعلمه.

٣) العوائق التي تقام في بعض المجتمعات الإسلامية في وجه الدعوة الصادقة إلى الدين الصحيح النقي المستند إلى الكتاب والسنة وأصول الشرع المعتبرة على وفق فهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين. فإن التدين فطرة فطر الله عباده عليها، ولا غنى لهم

---

[1] سورة القصص، الآية : ٧٧.

عنه، فمتى حرموا من العلم بالدين الصحيح والعمل به تفرقت بهم السبل وتلقفوا كل خرافة وتبعوا كل هوى مطاع وشح متبع.

٤) الظلم الاجتماعي في بعض المجتمعات وعدم التمتع بالخدمات الأساسية كالتعليم والعلاج والعمل أو انتشار البطالة وشح فرص العمل أو تدهور الاقتصاد وتدني مداخيل الأفراد. فكل ذلك من أسباب التذمر والمعاناة مما قد يفضى إلى ما لا تحمد عقباه من أعمال إجرامية.

٥) عدم تحكيم الشريعة الإسلامية في بلاد غالبية سكانها من المسلمين وإحلال القوانين الوضعية محلها مع وفاء الشريعة بمصالح العباد، وكمالها في تحقيق العدالة للمسلمين وغيرهم ممن يستظل بظلها ويتمتع برعايتها، وهي شرع الله الذي : {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }[1].

٦) نزعة التسلط وشهوة التصدر التي قد تدفع ببعض المغامرين إلى نشر الفوضى وزعزعة أمن البلاد، تمهيداً لتحقيق مآربهم غير آبهين بشرع ولا نظام ولا بيعة.

وليس هنالك عالم معترف بعلمه بين العلماء في العالم الإسلامي، إلا وقد أفتى بحرمة هذه الأعمال الإرهابية، واثبتوا بالأدلة الشرعية أنها

---

(١) سورة فصلت، الآية : ٤٢

مخالفة قاطعة لأصول الإسلام أدت إلى مفاسد كبيرة جداً بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم والشعوب، واستغلت استغلالاً بشعاً ضد الدين الإسلامي الحنيف وشريعته السمحة [1].

(1) الإرهاب، ص ١٨-٢٢ .

الفصل الرابع

حجج التكفيريين ومناقشتها

الفصل الرابع

حجج التكفيريين ومناقشتها

١- في تكفير الناس :

كفر هؤلاء التكفيريون في العراق كل من اشترك في العملية السياسية، بدعوى أنهم والوا المحتل الكافر، دون أن يرجعوا إلى تفاسير القرآن الكريم القديمة والحديثة الموثقة المعتمدة في تفسير آيات الولاية ومعناها، ودون أن يناقشوا الذين دخلوا فيها مناقشة فقهية أصولية واقعية، لعدم علمهم بتلك العلوم الشريفة، ولإتباعهم الهوى ابتداء، ولكي يصلوا إلى أغراض يعرفها العقلاء وأهل العلم والسياسات جيداً.

ونأتي الآن إلى بعض هذه الآيات لنرى ماذا يقول الراسخون من أئمة التفسير فيها :

- قال تعالى : {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ}[1].

---

[1] سورة آل عمران، الآية : ٢٨

• وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[1].

قال الإمام الطبري : "وهذا نهى من الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر، إلا أن تتقوا منهم تقاه إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل".

ونقل الطبري هذه المعاني باسانيده عن عبدالله بن عباس والسدي ومجاهد والربيع والضحاك وقتادة والحسن، رضي الله تعالى عنهم[2].

وهذه الآيات وغيرها نزلت في المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود، منهم عبدالله بن أبي سلول الذي تمسك بحلف اليهود بعدما ظهرت عداوتهم لله وللرسول، فاخبره الله تعالى "أنه إذا تولاهم

---

(1) سورة المائدة، الآية : ٥١ .

(2) الطبري، ٤/ ٢٧٤ وما بعدها .

وتمسك بحلفهم أنه منهم في براءته من الله ورسوله كبراءتهم منهما" وفي الرواية أن عبادة بن الصامت تبرأ من حلف اليهود رضي الله تعالى عنه وذهب إلى ذلك جميع المفسرين القدماء والمحدثين [1].

إذن الموالاة للكافرين بإجماع المفسرين يعني : موافقتهم في الدين، ونصرهم على المسلمين، ومحبتهم، والتجسس لهم، والركون إليهم.

فلنأت الآن إلى قادة الحزب الإسلامي العراقي والعلماء والخطباء والدعاة الذين كفرهم هؤلاء ممن يسمون أنفسهم بالقاعدة وغيرها. هل هم وافقوا المحتل في دينه وهل نصروهم على المسلمين وهل تجسسوا لهم؟

وفي جواب ذلك نقول :

- هؤلاء جميعاً رفضوا الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق، قبل الاحتلال ودعوا الناس إلى جهاد هؤلاء المحتلين في خطبهم ومحاضراتهم وتوجيهاتهم في أثناء الهجوم العسكري على العراق.
- رفضوا الاحتلال بعد وقوعه، وقاوموه مقاومة سياسية وفضحوا أهدافه ولاسيما الحزب الإسلامي العراقي، وهذه جريدته (دار السلام) وإذاعته وقناته الفضائية (بغداد) وبياناته وتصريحات قادته

(1) الرازي، ١٢/٨ – القرطبي، ٥٧/٤ و ٢١٦/٦ – المحرر الوجيز لابن عطية، ٤١٩/١ – فتح القدير للشوكاني، ٣٣١/١ و ٤٩/٢ – وابن عاشور، ٢٣٩/٦ .

للإعلام العربي والأجنبي، تحدثوا عن جرائمه التي ارتكبها في العراق، بلا هوادة ولا تردد ولا خوف، سواء في مجلس الحكم أم في المجلس الوطني أم في مجلس النواب وعلى جميع المستويات.

- صرحوا في قنواتهم الإعلامية كلها أن المقاومة الشرعية الوطنية والإسلامية حق للشعب العراقي، فلا يجوز الوقوف أمامه.
- لم يمنعوا أي عضو من أعضاء الحزب من ترك الحزب إذا شاء ويذهب إلى جانب المقاومة الشرعية.

وبسبب هذه السياسة آذى المحتل الحزب، بالمداهمات لمقراته، واعتقال أعضائه ووصل الأمر إلى اعتقال رئيس الحزب وأولاده ومداهمة بيته ثلاث مرات ومصادرة أسلحة حمايته.

إذن بأي حق شرعي قتل التكفيريون قادة ودعاة وأئمة وخطباء الحزب خاصة، والأئمة والخطباء والعلماء عامة؟

الأنهم دخلوا في العملية السياسية لمقاومة الاحتلال وفضحه في الداخل والخارج والمحافل الدولية؟

أم لأنهم دخلوا فيها للوقوف أمام تجزئة العراق واختلال التوازن بين طوائف الشعب العراقي، حتى لا تطغى طائفة على طائفة ولاسيما إذا أدى هذا الطغيان إلى إقصاء أهل السنة والجماعة الذين هم ميزان وحدة الشعب العراقي. إذ هم يرتبطون بالكرد والتركمان

ديناً ومذهباً، ويرتبطون بالشيعة العرب ديناً وقومية. اليس كل هذا وغير هذا مما يريده الشرع الإسلامي الحنيف؟

والحق أن موقف المقاومة الشرعية كان موقفاً شريفاً ممن دخلوا في المقاومة السياسية بعد الاحتلال:

- فمنهم من قال : نحن على ثغر والحزب الإسلامي على ثغر وهم مجتهدون.

- ومنهم من قالوا : هم مخطؤن في اجتهادهم.

ولم يصدر من أية جبهة من جبهاتهم تكفير وتفسيق للحزب الإسلامي وعلماء الأمة ولم يرتكبوا سفك دم حرام، لأنهم جميعاً مطلعون على مذاهب أهل السنة والجماعة في عدم تكفير المسلم أو تفسيقه بلا حجة شرعية قاطعة.

وقد تبين ذلك لي في جلسة مطولة، اجتمعت فيها مع أربعة من قادتهم في بيت من بيوت الغزالية في بغداد، عقب الانتخابات الأولى في بداية عام ٢٠٠٥م، أردت أن أناقشهم فيما صار الأمر إليه بعد تلك الانتخابات، حيث قاطعها أهل السنة جميعاً، فحدثت نتيجة ذلك خلخلة كبيرة في المجتمع العراقي، مما أدى إلى اشتراك قطاع كبير منهم في الانتخابات الثانية، تحت مظلة جبهة التوافق العراقية وغيرها.

وأما التكفيريون الذين تركوا أهل السنة والجماعة وجددوا مذهب الخوارج بأعنف منهم، هم الذين كفرّوا وارتكبوا الدم الحرام في أناس كان يُستقى بهم المطر لصلاحهم في الدين والدنيا.

وليس لنا إلا أن ندعو لهم ربّ العالمين بالهداية والرجوع إلى طريق الله المستقيم سواء في العراق أم غير العراق.

٢- في التترس :

التترس على ما شرحه علماء الإسلام، أن يهاجم العدو أرض الإسلام، ويسوق أمامه عدداً من المسلمين يتترس بهم، فماذا نفعل في مواجهته ودفعه؟ إن قاتلناه؟ سنقتل ابتداء معصومي الدم من المسلمين، الذين تترس بهم ، وإن تركناه سيدخل بلدنا ويحتل أرضنا ويقتل أبناءنا ويغتصب نساءنا، هذا حسب النظام القديم في الحروب.

قالوا : لابد من مقاتلته ولو قتلنا المتترس بهم من المسلمين، لأن الحفاظ على دين الأمة وعزته، وحياة عموم المسلمين والحفاظ على أرضه وعدم تمكين الأعداء منها، أعظم من حياة جمع من المسلمين، لأنه إذا لم نقاتلهم، سيقتلوننا ويقتلونهم أيضاً، ثم إنهم لو كانوا معنا، كان عليهم أن يقاتلوا فيستشهدوا معنا، وهم شهداء في كل الأحوال بدمائهم نشتري مصلحة الأمة العليا.

يقول الإمام السرخي رحمه الله تعالى : "... لو ترس المشركون بأطفال المسلمين، فعلى من يرميهم أن يقصد المشركين وإن كان يعلم أنه يصيب المسلم"[1] .

يقول الإمام الغزالي : "إذا ترس الكفار بجماعة من أسرى المسلمين، فلو توقفنا عن قتله غلبوا على دار الإسلام وقتلوا المسلمين كافة، ثم قتلوا الأسرى أيضاً. ولو رمينا الترس قتلنا مسلمين لم يذنبوا ذنباً، ولكن حفظ المسلمين وديارهم أقرب إلى مقصود الشرع لأننا نعلم أن مقصود الشرع تقليل القتل، وكل هذا التفات إلى مصلحة علمنا ضرورة أنه مقصود الشرع لا بدليل واحد"[2] .

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى "وكذلك مسألة التترس التي ذكرها الفقهاء، فإن الجهاد هو دفع فتنة الكفر، فيحصل فيها من المضرة ما يحصل ولهذا اتفق الفقهاء على أنه متى لم يتمكن دفع الضرر عن المسلمين إلا بما يقضي إلى قتل أولئك المتترس بهم جاز ذلك"[3].

هذه القضية يستشهد بها التكفيريون بجهالة واضحة فهم يفجرون موقعاً في السوق، فيموت عشرات من المسلمين أطفالاً ونساءً ورجالاً، لأن سيارة أمريكية تمر من هناك، أو لأن سيارة أمريكية واقفة بالشارع،

---

(1) المبسوط، ١٠/ ١٥٤-١٩٨، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ

(2) المستصفى، ١/ ١٣٩، ط ١، مصطفى محمد، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م .

(3) مجموع الفتاوى، ٢٠/ ٥٢، الأولى، الرياض .

كما حصل على سبيل المثال في حي العامل في بغداد حيث قتل عشرات الأطفال الذين كانوا مجتمعين ينظرون إلى سيارة أمريكية، عند تفجيرها.

إن أي فقيه تعرض عليه هذه المسألة سيقول ما علاقة هذه القضية وأمثالها بحكم التترس، لا المحتل عندما دخل تترس بأهل البلد، ولا يتترس بهم في الداخل، فما ذنب أهل شارع مزدحم، تمر فيه سيارات أمريكية يفجرون ويموت منهم العشرات، ويعوق عشرات آخرون يومياً. إن الألوف من الرجال والنساء والأطفال قتلوا بهذه الطريقة، والغريب أن جنود المحتل قد ينجون، أو يصاب منهم واحد لأنهم محصنون داخل الآليات المدرعة، والناس المكشوفون في الشارع من المارة والواقفون يقتلون وأشلاؤهم تتناثر في كل مكان.

إن طبيعة الحروب القديمة تختلف عن الحروب الحديثة اختلافاً جذرياً، ففي الحروب الحديثة انتهى التترس بالمسلمين أو غيرهم، فالجيوش تهاجم براً وبحراً وجواً، فتدخل أو تدمر البلد الذي تريد معتمدة على قوتها التكنولوجية الهائلة، فهي لا تحتاج إلى التترس كما كان يحصل في الجيوش القديمة، فمقاومة هذه الجيوش لابد أن تتم بالأساليب الحديثة وبمواجهات مباشرة ولاسيما في أماكن تجمعاتها، وخطوط امداداتها، وما وقع في داخل المدن العراقية المكتظة من هجمات على سيارة أو مدرعة أمريكية، أدت أحياناً إلى قتل عشرات من الرجال والنساء والأطفال

الآمنين الذين صادف وجودهم في المكان. فما علاقة هذه الحالة بموضوع الترس القديم.

ثم إن الأصل في ضرب ترس الأعداء بالمسلمين الحفاظ على الدين والعرض والنفس والمال، وعدم تمكين الأعداء من أمة الإسلام، بينما حدث العكس في موضوع الترس المزعوم الآن، بحيث أصبح انتهاك أنفس المسلمين وأموالهم ومصالح بلادهم هو الأصل، والنتائج العملية على أرض الواقع تثبت ذلك.

٣- ثم إنهم يقولون إن الذين ماتوا يموتون على نياتهم، ولاشك إن الذين يموتون يحاسبون يوم القيامة على نياتهم وعلى ما عملوا في هذه الدنيا، إن كانوا مؤمنين أو مسلمين فاسقين أو منافقين أو كافرين. وهل نية المقتول تنجي القاتل من العقاب الأليم أليس هو القاتل؟ ما علاقة هذا الاعتداء بنيته، رجل يقتل رجالاً ثم يقول : قتلي مشروع لأن الذي سببت قتله مات على نيته، أليس هذا قلبا للحقائق وتحريفاً لنصوص الكتاب والسنة، واعتداء صارخا على النفس البشرية.

ألا يقول الله تعالى : {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً}[1].

---

[1] سورة الأنفال، الآية : ٢٥

قال القرطبي : قال ابن عباس : "أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب"[1].

ونقل مسلم في صحيحه «عن زينب بنت جحش، أنها سألت رسول الله ﷺ، فقالت له : يارسول الله : انهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم، إذا كثر الخبث»[2]. وفي صحيح الترمذي «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[3].

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا نزل بقوم عذاب أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم» [4].

وروى عن مسلم عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، أن عائشة رضي الله عنها، قالت : عبث رسول الله في منامه، فقلت : يارسول الله، صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله؟ فقال : «العجب إن ناسا من أمتي يؤمون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا : يارسول الله : إن الطريق قد يجمع

---

(١) القرطبي، ٩/ ٤٨٦، ط الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

(٢) صحيح مسلم، ٢٨٨٠ – البخاري، ٣٣٤٦

(٣) الترمذي، ٢١٦٨ – أبو داود، ٤٣٣٨، ابن ماجه، ٤٠٠٥ – قال الترمذي حديث صحيح

(٤) صحيح البخاري، ٧١٠٨ – مسلم، ٢٨٧٩

الناس، قال : نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله تعالى على نياتهم»[1].

قال القرطبي : "فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين"[2].

هذه الآيات وتلك الأحاديث تتحدث عن سنة من سنن الله في عقاب الأمم المتمردة على الله، فيأتيهم العذاب من الله تعالى لحكمة يشاؤها ويعلمها، فهل هؤلاء التكفيريون يقيسون أنفسهم على الله سبحانه وتعالى؟

أما في الآية فيحذرنا الله سبحانه وتعالى من الفتن التي يخالف الناس فيها أوامر الله سبحانه ويخلطون الحق بالباطل ويؤولون القرآن والسنة تأويلات باطلة، فيسبق عليهم الكتاب، وتتحقق فيهم سنة الله تعالى بالنسبة للجميع، لأن قسماً منهم فعلوا المنكر وتجاوزوا الحدّ فيه، وقسم آخر رضوا بذلك ولم يأخذوا على أيديهم، ولم تتمعر وجوههم برؤيتهم تلك المنكرات، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى، وهو الخالق الحاكم الجبار المنتقم يفعل ما يشاء. {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[3]. بعد أن حذرهم أن يتبعوا دينه ولا

---

(1) صحيح مسلم، ٢٨٨٤

(2) القرطبي، ٩/ ٤٨٨

(3) سورة الأنبياء، الآية : ٢٣

يقروا المنكر كما في حديث ابن عباس، فيعمهم العذاب. وأما الأحاديث الأخرى التي سقناها، فكلها في هذا المعنى، وهو أن الناس رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه، فعمهم الله تعالى بعذاب من عنده، والله تعالى جرت إرادته أنه لا ينزل بقوم عذاباً، إلا وهم مستحقون لذلك، فقد أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين فدلوهم على الطريق الصحيح المستقيم ثم هم خالفوا وعصوا.

وفي يوم القيامة يقول القرآن الكريم : {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى ... }[1]. فهل هؤلاء التكفيريون يعطون لأنفسهم الحق في إهلاك البشر؟ ويقيسون أنفسهم على الله سبحانه وتعالى، ولهم حق التصرف، حتى يقولوا نحن نقتل عشرات الأطفال الواقفين قرب سيارة أمريكية، وهم سيموتون على نياتهم. ثم على أي أصل من أصول الشريعة، يمكن أن يسوغ هذا القتل.

إن جميع النصوص التي نقلناها سابقا والتي تمثل عقائد أهل السنة والجماعة ترد ذلك وترفضه، منطوقاً ومفهوماً، وليس هنالك عالم على وجه الأرض يحترم علمه وعقله يقبل ذلك التأويل الباطل.

إن هذه الأحكام صدرت في العراق وغير العراق عن جهل مركب بحقائق الشريعة الإسلامية وهو مضل، وبدعة متصلة ببدع سابقة ظهرت في تاريخ الأمة.

---

[1] سورة الزمر، الآية: ٧١

حدثني الأخوة في حركة مجتمع السلم في الجزائر الذين دعوني لحضور نشاطات الجامعة الصيفية في صيف عام ٢٠٠٦م، فقالوا : عندما اختطف التكفيريون العالم الجليل الداعية الثبت، الشهيد محمد بو سليماني، نائب الأخ المرحوم محفوظ نحناح في الحركة، أبقوه أياماً يطلبون منه أن يكون مفتياً لهم فيما يرتكبون من المجازر والاغتيالات، لأنه ليس عندهم مفت عالم يسوغ لهم تلكم القباحات الدموية، فرفض وقال لهم : إذا كنتم تثقون بعلمي، فإن الأعمال الدموية التي ترتكبونها مخالفة للشريعة مخالفة قطعية، وأنا لا يمكنني أن أفتى بالباطل، فلما لم ينفع معه الطلب الظالم، ذبحوه من الوريد إلى الوريد.

حدثهم بذلك أناس منهم تابوا في العفو العام ورجعوا إلى أهليهم، وجاؤوا إلى هؤلاء الأخوة وإلى أهل الشهيد وذكروا لهم قصة ذبح العالم الرباني محمد بو سليماني.

وقد اعترف بذلك الدكتور إمام عبدالعزيز المعروف باسم الدكتور فضل، والذي كان من قياداتهم المهمة أي قيادة جماعة الجهاد في مصر رسالة شرعية مهمة بعنوان "ترشيد الجهاد في مصر والعالم العربي" والذي ما زال يقضي محكوميته في سجن طره المصري، فقال في حواره مع جريدة الحياة اللندنية " لا يوجد لدى القاعدة من هو مؤهل شرعاً للرد عليه لأنهم من ابن لادن إلى الظواهري إلى غيرهم ليسوا من أهل العلم الذين يعتد

بقولهم في أمور الدين وإنما هم من العوام، والعامي لا يعتد بقوله في الاتفاق ولا في الاختلاف وإن تكلم"[1].

[1] عدد ١٠ ديسمبر ٢٠٠٧م

الفصل الخامس

أسباب التكفير

الفصل الخامس

أسباب التكفير

هنالك أسباب كثيرة لظهور منهج التكفير في العصر الحديث نجملها فيما يأتي :

١- إن ظهور التكفير بهذه الصورة الشاملة في الأقطار الإسلامية نتيجة من نتائج العلمانية والحكم بغير ما أنزل الله. فلقد ابتعد المجتمع الإسلامي منذ القرون الأخيرة عن صياغة الأمة، صياغة تربوية إسلامية في ظل عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، واستبدالها بالقوانين الوضعية التي كانت تمثل مجتمعات تختلف عن مجتمعاتنا ديناً وتاريخاً وعوائد وحضارة، فأحدثت أزمة كبيرة في المجتمعات الإسلامية، لأن القيم الأصيلة لأمتنا اصطدمت مع القيم المستوردة لأمم أخرى فانتهت إلى الفوضى وعدم الاستقرار في النظم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، أي أن تطور المجتمع الإسلامي لم يسر منطقياً، ولم يحدث التغيير المطلوب من الداخل والاستفادة مما يحدث في الخارج، وإنما فرض عليه من الخارج في ظل حكم المستعمرين أو ذيولهم الباقية.

هذا الوضع أدى إلى تمرد الشباب المتدين الذين لم يفهموا تطور الأوضاع المعقدة، ولم يدركوا معادلة التصادم ذلك، لا إسلامياً ولا واقعياً، فأدى بهم الأمر كالخوارج إلى النظرة السطحية لآيات سورة المائدة [1]. {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ} و {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } و {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }.

ثم أنه لم يظهر مفكرون إسلاميون واعون في بداية اتصالنا بالغرب يعرفون كيف يوفقون بين أصول الشريعة وبين الجوانب الإيجابية في الحضارة الغربية، حتى يسير المجتمع الإسلامي بروح الأصالة ومتطلبات العصر، فانقسم الناس بين راجع إلى الماضي برمته دون تمييز بين الصحيح والسقيم وبين الوحي المعصوم وتاريخ المسلمين الذي يتوزع بين الإشراقات والنكسات، وراد مع ذلك لكل جديد جاءنا من الغرب دون فحص وتمييز، وبين تارك للماضي وحياً وتاريخاً، ومستسلم إلى ما جاءنا من الآخرين دون إدراك سليم ووعى عميق بطبيعة المرحلة الجديدة فكراً وواقعاً.

٢- دخلت الأمة الإسلامية إلى العصر الحديث وهي ترزح تحت كوارث أوضاعها المتأخرة، واستسلام أجيالها إلى الجهل والجوع والمرض، نتيجة لعدم التخطيط وتوقف التنمية الحضارية فيها، مما اسقط كثيراً

[1] سورة المائدة، الآيات : ٤٤ – ٤٥ – ٤٧ على الترتيب

من البلاد الإسلامية تحت أقدام قوات الدول الاستعمارية القوية، التي امتصت خيراتها، ونشرت فيها قيمها الحضارية المادية اللادينية، مع تحكيم قوانينها الوضعية، محاولة إدخال روح التفرقة بين أبنائها وتغيير ما بقي فيها من قيم أخلاقية خيرة.

وعندما تركها نصبت عليها بشكل من الأشكال حكاماً تربوا على مفاهيمها وقيمها الأخلاقية النسبية ومبادئها اللادينية التي سميت زوراً بالعلمانية.

وعندما تحرك الجيل الجديد يدعو إلى إسلامه ويطالب بتطبيق شريعة ربّه، اصطدم بمراكز القوى اللادينية التي استعملها الحكام في ضرب الحركة الإسلامية بدء بالتضييق على رجالها وانتهاء بالاعتقالات وغياهب السجون والتصفيات الجسدية.

وكان من نتائج هذا الاعتداء الصارخ أن انبرى جمع من الجيل الإسلامي داخل السجون لتكفير الحكام الطغاة الظالمين، بل تجاوز بعضهم إلى تكفير المسلمين، لأنهم لاهون ساكتون راضون بهذا الطغيان الأثيم، غارقون في الجهالات والرذائل.

ولو كان الإسلاميون من بداية العصر الحديث يفهمون الواقع الجديد ويواجهونه بقوة الفكر السديد، ويدعون إلى الإصلاح والتغيير التدريجي ويدركون فساد المجتمع الشامل، كان من الممكن

٤- ساعد على ذلك كله جهل التكفيريين العام بحقائق الكتاب والسنة، فالقرآن شبكة رصينة من الآيات العظيمة، وردت بلسان عربي مبين. فيها القطعي والظني، وفيها العام والخاص، وفيها المجمل والمبين، وفيها المقدم والمؤخر، وفيها المطلق والمقيد، وفيها الحقيقة والمجاز والمشترك، وفيها ما يفسر بعضه بعضاً، وفيها العام الذي يأتي بمعنى الخاص والخاص الذي يأتي بمعنى العام، وفيها سنن الأنفس والآفاق، وفيها النظر في الأصول والقواعد والمقاصد والمآلات.

إن فهم القرآن الكريم عبر العصور، زلت فيه الأقدام، ولاسيما عند المبتدعين الذين أرادوا أن يخضعوا القرآن إلى مصطلحاتهم الفلسفية والكلامية والعرفانية التي حدثت في حياة الأمة، نتيجة اختلاطهم بالأمم الأخرى، التي كانت لها ثقافات وثنية أو شركية أو غنوصية، فأخرجوا لنا الفرق الكثيرة التي دخلت في صراعات داخلية من خلال تأويلاتهم الباطلة. كل فرقة ادعت الحق معها، وضللت الفرق الأخرى، من الخوارج إلى فرق الشيعة إلى المعتزلة والمرجئة واتجاهات التصوف وغيرها.

ثم لابد من السنة النبوية الشريفة التي جاءت بياناً للقرآن الكريم بنص قوله تعالى : {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}[1].

---

[1] سورة النحل، الآية : ٤٤

والسنة النبوية منها ما يخصص عام القرآن الكريم ومنها ما بين مجمله، ويقيد مطلقة، ويجيب على أشكال فيه، ويوضح قواعده العامة، ويأتي ببعض الأحكام المتفرعة منه ويؤكد أحكامه الخاصة والعامة.

ثم لابد في هذا المجال التمييز بين مراتب الحديث من حيث الصحة والضعف فيهما، وما قاله بنور نبوته ﷺ وما ذكره بحكم إمامته.

والإطلاع الدقيق على ما قاله الصحابة والتابعون في معاني القرآن الكريم، وهم الذين عاشوا مع رسول الله ﷺ وأخذوا منه، واطلعوا على أوضاعه، والتابعون أخذوا كل ذلك منهم.

ثم لابد من الإطلاع على ما بناه علماء الإسلام، مفسرين ومحدثين وفقهاء وغيرهم على تلك المعارف المباركة، من أصول وقواعد ومقاصد واجتهادات متنوعة عبر العصور، مراعين تطور الزمان وتبدل الأحوال بحيث أنتجوا من ذلك مذاهب متنوعة، تشكل ثروة تشريعية كبرى، تفاخر بها أمة الإسلام الأمم والشعوب الأخرى، وتعطي لشريعتنا السمحة مقومات التطبيق الشامل والخلود الدائم[1].

على أن معرفة هذه العلوم الدقيقة الراسخة بتفاصيلها لا يقوى على هضمها إلا الراسخون في طلب العلم، بل إن كل علم من هذه العلوم يحتاج إلى الأذكياء الراسخين.

---

[1] راجع كتابنا (دراسات في أصول تفسير القرآن)

ثم أن معرفة دفع تزاحم الحكام مهمة جداً، للوصول إلى استخراج النظر السديد والرأي الرشيد.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله "فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما، لم الآخر في هذه الحال واجباً ولم يكن تاركه لأجل فعل لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرمان، لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة وإن سمى ذلك ترك واجب، وسمى هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر ويقال في مثل هذا ترك الواجب وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة أو لدفع ما هو أحرم"[1].

ويقول "لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين. فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها حسب الإمكان. ومطلوب ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا معا، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً"[2].

ومن هنا فإن هنالك أصواتاً ترتفع في العالم الإسلامي تؤكد أن الاجتهاد في هذا العصر، لابد أن يكون جماعياً متمثلاً في المجامع الفقهية المعروفة في البلاد الإسلامية، ولاسيما في الأمور الخطيرة كالتكفير والردة وسفك الدماء.

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٠/ ٥٧-٥٨ .

(2) المصدر السابق، ٢٣/ ٣٤٣ .

والحق أن الرسوخ في هذه العلوم في زماننا لا يكفي، إن لم يكن العالم بها متعمقاً في فهم حركة العصر وظروفه وتطوراته الداخلية والإقليمية والعالمية. لأن الكرة الأرضية غدت في ضوء تقنيات المعلوماتية الحديثة قرية واحدة كل حركة فيها تؤثر في أرجائها جميعاً. والمصالح والمفاسد لابدّ أن تراعى فيها في ضوء أصول الشريعة ومقاصدها النبيلة.

يقول العلامة ابن قيم الجوزية : "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلاّ بنوعين من الفهم : أحدهما : فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً. والنوع الثاني : فهم الواجب في هذا الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر"[1].

إن العلوم الصرفة والمعارف العقلية والإنسانية، قد تطورت تطوراً هائلاً في هذا العصر. فلابد للمفسر أن يطلع إطلاعاً كافياً على نتائج تلك العلوم والمعارف، لكي يستأنس بها في فهم كثير من الآيات القرآنية في ضوء قوله تعالى : {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[2].

---

[1] إعلام الموقعين، ١/ ٨٧-٨٨

[2] سورة فصلت، الآية : ٥٣

ومن هنا فإن القاعدة التي تقول أن القرآن الكريم يمكن أن يفهم في كل عصر في ضوء المستوى الحضاري الذي وصل إليه ذلك العصر صحيح جداً، فالقرآن الكريم لم ينزل لعصر واحد، بل هو مفتوح لاحتواء مشكلات الإنسان في كل زمان ومكان.

هذا فضلاً عن أسباب جزئية وشخصية ونفسية قد تدفع هؤلاء التكفيريين إلى اتخاذ مواقف منحرفة في تصرفاتهم وحكمهم على المسلمين وإصدار الفتاوى الباطلة التي لا تستند إلى أساس شرعي بقتلهم وتوجيه شبابهم إلى تخريب المجتمع بل وتشكيل عصابات تقوم بسلب ونهب أموال الناس عن طريق الاختطاف وغيره.

وقد لا يكون ذلك عن طريق بعض الشباب المتدين الذي دخل العراق على سبيل المثال لقتال المحتلين.

ولكن يأتي عن طريق المنافقين وأهل البدع والضلالة والعلمانيين الذين اخترقوا صفوفهم، فضلاً عن المنظمات السرية التي اندس أفرادها بينهم ووجهوهم إلى كثير من أفعالهم الباطلة التي شوهت صورة الجهاد الإسلامي أمام الناس.

الفصل السادس

علاج قضية التكفير

الفصل السادس

علاج قضية التكفير

قضية التكفير غدت اليوم قضية خطيرة انتشرت بين الشباب البريء الذي يجهل حقائق الدين والدنيا، كما ذكرنا من قبل، ولذلك فالمعالجة لابد أن تمتد إلى جذورها لقطع دابرها وتخليص المجتمع الإسلامي من نتائجها المدمرة المشوهة للإسلام العظيم أمام العالم.

ومن الممكن أن أقدم بعض المعالجات التي يمكن أن تقضى على هذه الظاهرة الخطيرة، أو في الأقل التخفيف منها. وهذه المعالجات تستنبط من عين الأسباب التي أدت إلى انتشار منهج التكفير :

١- لابد لحكام المسلمين أن يصلحوا ما بينهم وبين إسلامهم، فيخططوا للعودة إلى حكم الشريعة الإسلامية ولو تدريجياً، بتوجيه العلماء الجامعين بين الرسوخ في فهم أصول الشريعة وقواعدها وإدراك حركة العصر والزمان مستفيدين في مواجهة مشكلات الزمان من سماحة الدين ومرونة القواعد والنظر في المآلات.

إن تلك الأصول والقواعد والمقاصد لا يمكن أن تعيق التقدم والتنمية وبناء الحضارة والدخول في العصر الجديد.

والمسلمون ما تفرقوا ولا ضاعوا إلا بإهمال تلك المبادئ العظيمة التي تدعو إلى البناء والحركة والأخذ الراشد بما عنه الأمم من الانجازات العلمية والإنسانية.

إن العلمانية اللادينية التي فرضها علينا المستعمرون هي التي أبعدت المجتمع الإسلامي عن الإسلام وفرقت بين أبنائه وقدمت لنا الطغاة المستبدين أمام الباب المسدود.

والتمسك بالإسلام هو الذي يحقق لنا الشورى والعدالة وكرامة الإنسان وإقرار حقوقه، ونشر الرخاء والتوازن الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الإسلامي، شريطة أن نربط بين الوحي والعصر، لأننا إذا رجعنا إلى التاريخ، سنجد فيه التطبيقات المبتورة التي أدت في كثير من الأحيان إلى الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

والبداية من التاريخ يعني أن ننقل إلى مجتمعاتنا الفرقة والمذهبية والطائفية والاجتهادات الفقهية المرتبطة بزمانها ومكانها، وننقل أيضاً شكليات النظام السياسي في تلك العصور.

إن الجيل الحاضر إذا رأى الإخلاص في الحاكمين، والعمل الدؤوب لخدمة المجتمع وتحقيق الكرامة والعدالة، لن تحصل عنده ردود

الأفعال، ولن يلجأ الشباب إلى العنف والتخريب، بل سيتحول إلى عامل بناء وليس عامل هدم وتخريب.

واستمرار ظلم الحكام، وإحاطة أنفسهم بالمنافقين وسراق أموال الأمة، وإهمال مطاليب الشعوب العادلة وعدم الوقوف الحازم أمام مطامع الدول المعادية، ستنفخ في كير التكفير والتخريب والغلو وانتشار روح الانتقام منهم ومن المجتمع باسره.

إذا عاد الحكام إلى رشدهم، واعتنوا بدينهم وكرامة شعوبهم، واستمسكوا بوحدة أمتهم، حينئذ يستطيعون أن يقفوا صفاً واحداً أمام أعدائهم. فهذه الوحدة هي التي ترهب الطامعين والمتآمرين. فلنتصور أن سبعة وخمسين دولة إسلامية تهدد بمقاطعة من يقفون وراء الكيان الصهيوني، مقاطعة سياسية واقتصادية، هل تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تحارب الدول الإسلامية جميعاً، إنها الآن تلغ في المستنقع العراقي والأفغاني، فكيف بسبعة وخمسين دولة.

إن الدول الإسلامية إذا انطلقت من المؤتمر الإسلامي الحالي انطلاقة قوية لاتخاذ مواقف عادلة للدفاع عن حقوقها. فإنها ستفرض تلك المواقف بقوة الوحدة والسياسة والاقتصاد دون إطلاق طلقة واحدة.

إن تمرد الشباب سواء كان تمرداً تكفيرياً أم تمرداً اجتماعياً سينتهي – بإذن الله – إذا أطمأنوا إلى سياسات حكامهم، بل إذا عرفوا أن هؤلاء الحكام يأتون من أحضان جماهيرهم، لأن تحرير الأمة من خلال اتخاذ المواقف الحازمة هو الطريق الآمن إلى بناء المصالحة الحقيقية بين الشعوب وحكامها.

٢- لابد أن تتغير المناهج الإسلامية في المراحل الدراسية من الانغلاق والاتجاه الأحادي، لأن المناهج الجديدة هي التي تشكل العقليات المنفتحة على الحياة، فالإسلام أعظم من أن ينحصر في مذهب واحد، وأوسع من أن نغلق قضاياه في فتاوى ضيقة تفرض على طلاب العلم بالقوة.

فبعض البلاد الإسلامية، عندما تبنت مذهباً واحداً في التدريس والتثقيف انتهت إلى تكوين الشخصية الجامدة التي لم تستطيع مواجهة الحياة الحاضرة. وقد سبق أن قلنا أن المنهج الأحادي في فهم الإسلام كان مسؤولاً عن العقليات التكفيرية.

إن إدعاء المنهج السلفي من حيث اصطلاحات المتآخرين الصادرة عن أشخاص معينين لا من خلال مناهج الصحابة والتابعين، هو المسؤول الأول عن أزمة العقل المسلم المغلق الحالي الذي لا يقبل الانفتاح ولا المناقشة الحرة الهادئة، لأن هذا الإدعاء المزعوم يقدم

المذهب من حيث المواد الدراسية والفتاوى الإعلامية بأنه هو الإسلام.

ومناهج الصحابة الكرام وتابعيهم كانت مناهج مفتوحة، وهي التي شجعت المناقشة الحرة، وإتباع الدليل، وأدت إلى ظهور المذاهب الفقهية المتنوعة التي أخصبت الفقه الإسلامي ووضعت أمام الأجيال حلولاً عدة للمسألة الواحدة، يختار منها المفتي الرأي المناسب للنازلة الواحدة في الزمان والمكان، وعندما يتغير الوضع له أن يتجاوز رأيه الأول إلى الثاني أو الثالث أو الرابع المناسب.

إذن إذا أردنا أن نعيد التوازن إلى العقلية الإسلامية، فلابد أن تقوم مناهجنا على أساس المقارنة الفقهية بحيث يتكون عند الطالب عقلية قبول الآخر وعدم إقصائه، ويعترف بالمذاهب كلها، ويعدها مذاهب إسلامية للمفتي أن يختار المذهب الذي يراه مناسباً وراجحاً.

ومن الخطأ المبين أن تختار الدولة الإسلامية مذهباً واحداً، فتحول إلى دولة مذهبية تفرض على المفتين طريقاً واحداً لحل مشكلات الأمة، وهي بدل حلها تنتج مشكلات جديدة.

إن الدول الإسلامية في هذا العصر لابد أن تترك خيار المذاهب والفتوى للعلماء الراسخين والمجامع الفقهية، لأن حل مشكلات العالم الإسلامي مجتمعات وأفراداً في هذا العصر المعقد، لا يمكن أن

يقوم بها مذهب وأن تجرى الاجتهادات والفتاوى في إطاره، بل وفرضه على الناس بقوة الدولة.

فالمقارنة المذهبية أو الانفتاح المذهبي هو الطريق لقطع الطريق أمام ظهور مناهج التكفير التي أحدثت مشكلات مدمرة في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً.

ومنهج الإطلاع على جميع المذاهب الفقهية والكلامية ومبادئ الفرق الإسلامية في الجامعات الإسلامية وعرض أدلتها التفصيلية بحياد كامل، هو الذي ينتج المرونة اللازمة في عقلية الأجيال، فيستطيعون حينئذ التمييز بين الصحيح والضعيف، والخطأ والصواب، والحق والباطل.

بحيث إذا تبنى رأياً لا يكفر المتمسكين بالآراء الأخرى، لأنه غدا على علم مناسب بطبيعة تلك الآراء وأدلتها، وهنالك قاعدة مهمة وهي كلما اتسع إطلاع الإنسان على المذاهب، جذورها وآرائها وأدلتها، قل عنده التعصب، وانفتح على الآخرين.

وهذا لا يحققه إلا الحوار المتبادل في دراسات الجامعات والمرئيات الثقافية وعبر القنوات الإعلامية المقروءة والمرئية والمسموعة.

ومن هنا لابد للإعلام أن يؤدي دوره على جميع المستويات، إذا أردنا أن نتخلص من فرض الاتجاه الواحد والمذهب الواحد والرأي الواحد.

فإذا تثقف المسلمون كلهم عبر أجيالهم في ضوء المنهج التعددي المفتوح، حينئذ يتخلصون من التعصب والصدام والتضليل والتبديع والتكفير.

حينئذ ينظر هذا العقل المتحرر من التعصب إلى الأمام والتوجه إلى حل معضلات الحاضر والمستقبل التي يجابهها، ولا يرجع إلى الماضي، لينقله بحذافيره إلى الحاضر والمستقبل وإنما يستأنس به ويثبت الخير فيه، ويدفع الشر الذي أساء إلى الأمة في الماضي حتى لا يتجاوزه إلى الحياة الحاضرة.

ومثل هذا العقل الراشد يضع حاضره دائماً في ضوء الأصول والقواعد العامة الخالدة التي قررها الوحي الإلهي، ليستنبط منها مثل ما استنبط الأولون.

ومثل هذا العقل هو اللائق لقيادة المشروع التنموي الإسلامي في كل عصر، والذي ينطلق دائماً من القراءات الثلاث، قراءة الكون المقروء، وهو القرآن الكريم، وقراءة الكون المنظور، وقراءة الكون الناطق، الذي هو رسول الله ﷺ.

فإذا دمج الإنسان المسلم في كل عصر بين هذه القراءات الثلاث، لا يتوقف أبداً في إحداث تنمية حضارية كبرى لن تتوقف عن الإبداع والإنتاج في أداء حق الخلافة على الأرض.

والمسلمون في القرون الأخيرة لم يتوقفوا في مضامير الحياة، إلا عندما توقفوا عن فهم الأكوان الثلاثة معاً، سواء في حال التفرقة بينها أم في حال الدمج.

ولا يظن أحد أنني أقصد بالكون الجانب المادي منه، وهو جانب اكتشاف القوانين المادية فحسب، وإنما أقصد الكون الوجودي بأكمله، ومنه الإنسان والمجتمع. فمذهبية الإسلام تقوم على أساس النظرة الشاملة إلى الكون وخالقه والمجتمع والإنسان.

٣- العدالة الاجتماعية :

حث الإسلام على تحقيق العدالة في المجتمع، بشموليتها العامة التي لابدّ أن تحقق كرامة الإنسان وحقوقه الإنسانية كاملة.

ولا يمكن أن تحقق هذه الكرامة إلا من خلال الأمور الآتية:

١) حريته في التدين والفكر الذي يتبناه ويؤمن به {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[1] سواء في داخل الدين الواحد أم بين الأديان المختلفة.

وأي وقوف أمام هذه الحرية ومحاولة كبتها سيؤدي إلى مسخ إنسانيته وفطرته، وينتهي إلى الانفجار والتمرد، فبدل أن تكون حرية الإنسان في خدمة التنمية الاجتماعية والرخاء الاقتصادي تتحول إلى عامل إعاقة وتدمير تلك التنمية على أساس أن

[1] سورة البقرة، الآية : ٢٥٦

الإنسان هو بطل التغيير. فإذا عطلت حركته وأهدرت طاقته، توقف التغيير وجمدت الحياة.

والحق أن الهدف الذي رمى إليه الإسلام عندما جعل الإنسان خليفة في الحياة وكلفه بالتسخير وفضله على كثير من الخلق، لم يتحقق كاملاً في تاريخ المسلمين. فقد بدأ الإضطهاد والاستلاب المتنوع للإنسان في ظل الدول والإمارات التي قامت في العالم الإسلامي بعد عصر الخلفاء الراشدين إلى عصرنا الحالي، وسحب من الإنسان المسلم تلك الحرية الإنسانية في إطار الضوابط التي وضعها الإسلام، حتى لا ينفلت الإنسان في ظل الحرية المطلقة إلى كائن تدميري لا يقف عند فطرته الحيوانية، بل يعلو ويسفل ويشوه صورة الحقيقة الإنسانية المتوازنة فيه، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم عند وصف الشاردين من الكافرين بنعمة الإيمان بأنهم أضل من الحيوان {أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[1] ، {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}[2].

---

(1) سورة الأعراف، الآية : ١٧٩

(2) سورة الفرقان، الآية : ٤٤

٤- تحقيق حريته الاقتصادية :

أي بناء مجتمع عادل، لا يهان فيه الإنسان بالفقر والسؤال وافتراش الأرصفة وشواطئ الأنهار، كالحيوانات الضالة.

لقد رأيت في أثناء دراستي العليا في القاهرة بين سنتي (١٩٦٥-١٩٧٢م) مئات العوائل المصرية لا يملكون بيوتاً إلا شاطئ النيل في العراء، وألوفا أخرى لا يجدون مكاناً إلا في المقابر، وعشرات الألوف الأخرى لا يجدون مأوى إلا في مرائب العمارات، وأخرى مثلها في الأحياء الحقيرة الفقيرة، لا يجدون طعاماً إلا بقايا ماء الفول في قدروها.

وأما الهند فقد حدثني الثقاة أن عشرات الملايين يولدون ويعيشون ويموتون على أرصفة الشوارع والطرقات.

وفي المغرب رأيت كيف تسحق كرامة الإنسان في مدن الصفيح، حيث يسكنها على حافات المدن عشرات الألوف من العوائل في حالة مأساوية لا يليق بكرامة الإنسان.

وفي العراق وفي أثناء تلمذتي في جامعة بغداد كنت آتي بالقطار من مدينة كركوك، الذي كان يدخل صباحاً بغداد، فالناظر يؤمئذ من الشبابيك كان يرى ألوف الصرائف القذرة التي كان يعيش فيها بشر مسحوقون بيد الفقر هاربين من الاستلاب الذي فرضه عليهم كبار

الملاك المنغمسين في قصورهم ولياليهم الحمراء في ملاهي بغداد، إلى أن بنى لهم عبدالكريم قاسم مدينة الثورة التي أعادت إليهم جانباً من إنسانيتهم.

إن انعدام العدالة الاجتماعية أثر تأثيراً بالغاً في التربية البيئية والتوجيه الصحي، والتقصير التعليمي، فانتشر الجهل والجوع والمرض.

فكيف نريد أن لا يظهر في مثل هذه المجتمعات الظالمة الذين يكفرون أو يكفرون أو الذين يتوجهون إلى ارتكان الجرائم، سداً للحاجة وانتقام من المجتمع الظالم.

فالعودة الشاملة للإسلام الإلهي الواعي الذي يكون المجتمع العادل الرحيم الذي يدعو فيه ربنا تعالى إلى : {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[1] هو الذي ينقذ المجتمع من استلاب الإنسان لأخيه الإنسان.

فالتعاون على البر والتقوى يحقق ضمن ما يحقق كرامة الإنسان وحقوقه الإنسانية. والإثم والعدوان لا يحقق إلا هدر تلك الكرامات في جانب الحرية الإنسانية والحرية الاقتصادية والحرية الاجتماعية عامة.

---

[1] سورة المائدة، الآية : ٢

إن إعادة التوازن الكامل إلى مجتمعاتنا الإسلامية بما يريده الإسلام في قراءاته الثلاث في إطار تجليات أسماء الله الحسنى في القرآن، ومعرفة نظام الوجود والاكتشاف العميق لشخصية رسول الله ﷺ الذي هو المثل الأعلى للكائن الحي في الوجود يعالج من خلال الرسوخ الكامل في معرفة تلك القراءات الثلاث وفهم حركة العصر مشكلات المجتمعات الإسلامية، ومنها مشكلة التفكير والتكفير والتدمير.

ومعالجة تلك المشكلات هي التي تخرج الأمة الإسلامية من الاستلاب الخارجي والداخلي وتعيدها إلى الشهود الحضاري الذي كلفه به الله سبحانه وتعالى، وحينئذ يتحقق في أمتنا قوله تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}[1] .

وحينئذ يعود دورها في خدمة نفسها وخدمة غيرها، من خلال عبوديتها الخالصة لربّ العالمين، تلك العبودية التي علمت الصحابي الجليل (ربعيّ بن عامر) أن يقول لرستم طاغية الفرس قبل معركة القادسية عندما سأله عن سبب مجيء الجيش الإسلامي إلى بلاده، فأجاب : "إن الله ابتعثنا لننقل الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها!" .

---

[1] سورة البقرة، الآية : ١٤٣

٥- إن الأوضاع المزرية في العالم الإسلامي التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة، ساق شرائح من الشباب إلى ردود فعل عنيفة من التخريف والتكفير وسفك الدماء، وهم في معظمهم غير واعين بما يدبر لهم، وغير مدركين بطبيعة الأوضاع التي تمر بأمتهم وغير عارفين بكيفية مواجهتها في حدود أصول دينهم وقواعده ومقاصده، بل هم بعيدون عن الثقافة العامة، محدودوا الخبرة والتجربة في الحياة. تسوقهم جهات مجهولة، ابتداء، جهة جهل، أو جهة تعصب، أو أغراض دنيوية هابطة، أو حب للزعامة والمغامرة أو خدمة جهة معادية.

فإذا وقع هؤلاء الشباب في حبائل الشبكات التكفيرية، فعلى السلطات الأمنية في البلاد الإسلامية أن تدركهم قبل تنفيذ الجرائم على أيديهم. فإذا استطاعت أن تلقى القبض عليهم قبل ذلك، فلابد من تنفيذ خطة تربوية إسلامية حكيمة في إنقاذ هؤلاء الشباب من سيطرة التفكير التكفيري الهدام، وإعادتهم إلى الصواب وحظيرة الحياة اليومية الآمنة.

وهذا يكون بتشكيل لجان علمية إسلامية تربوية من العلماء الذين يعرفون كيفية مخاطبة هؤلاء المخدوعين من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويخططون لمجالات الدخول في نفوسهم والتأثير فيها، عبر إطلاعهم على مذاهب التكفير في الأمة ونتائجها المدمرة عبر

التاريخ، ثم يبينون لهم سبل الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فينقذونهم من التوتر والعقد النفسية ويقودونهم من خلال الحب، وتذكيرهم أنهم يشكلون مستقبل الأمة، فإذا أرادوا أن يخدموا أمتهم فعليهم أن يسلكوا المسالك الصحيحة التي تعطى الثمرات اليانعة.

إن لجان الحوار العلمي الهادئ هذه تستطيع أن تقوم بعمل إسلامي منتج لإعادة هؤلاء الشباب إلى أحضان أسرهم ومجتمعهم، بدل أن يضيعوا في زنازين السجون، ويتعلموا الانحراف والجريمة، ويتعقدوا نفسياً، فيحقدوا على المجتمع، ويتحولوا بعد خروجهم إلى مجرمين محترفين، والتخطيط الجيد لهذا الحوار الديني السياسي مفيد إن شاء الله تعالى.

وأمامنا تجربة المملكة العربية السعودية، حيث فرقوا بين الشباب المغرر بهم وهم مئات وبين المجرمين الذين ارتكبوا جرائم فعلية بالاعتداءات على الآمنين والقتل والتفجيرات، وزعزعة أمن المجتمع وتكفيره وارتكاب أشد الجرائم فيه.

فنصبوا للحوار عشرات العلماء في لجان كثيرة، كل لجنة غدت مسؤولة عن جمع من الشباب يحاورونهم، ويفتحون صدورهم لأسئلتهم، ويبينون لهم حقائق الإسلام وشرور ما كانوا مقدمين عليه من أفعال إجرامية كادوا أن يقعوا فيها. وكانت نتائج هذه

الحوارات إيجابية ورجع كثير من هؤلاء الشباب إلى جادة الصواب وبعد المراقبة والاطمئنان إلى صلاحهم أطلق سراحهم.

وقد حدثني عدد من هؤلاء الدعاة عندما كنت في الرياض في العام الماضي (١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م) أن مئات من الشباب الذين حاوروهم، تبين أنهم ليسوا واعين بما يفعلون وأنهم يجهلون الحكم الشرعي، وليست عندهم أية ثقافة واقعية لما سيقوا إليه من أمور خطيرة، وكانوا يقولون أن موجهينا قالوا لنا ما تفعلونه هو الذي يريده الإسلام منكم، وما انتم سائرون عليه هو الجهاد، وأنهم ساروا في هذا الطريق وهم يعتقدون أن هذا هو طريق خدمة الإسلام، وأن الحكام والأجهزة الأمنية كفار تجب مقاتلتهم وأن المجتمع جاهلي يجوز قتل من يدعون الإسلام منهم. يقول الدعاة: عندما أوقفنا هؤلاء الشباب أمام الحقائق الإسلامية وأوضاع مجتمعهم، استيقظوا كأنهم كانوا يحلمون.

أما الذين ارتكبوا جرائم ضد أمن المجتمع والأفراد وسفكوا دماء الناس بالباطل فهؤلاء لهم القضاء الإسلامي العادل، كي ينالوا جزاءهم ويكونوا عبرة لكل من أراد أن يعتبر ابتداء ولا يلج عالم التكفير والجرائم.

على أن إطلاق سراح من تثبت براءتهم من هؤلاء الشباب المغرر بهم لا يكفي، بل يجب تأهيلهم علمياً ومهنياً. فمن هو مؤهل

للقبول في المعاهد والكليات يجب أن يقبلوا فيها، حتى لو لم تكن درجاتهم تساعدهم في القبول، كي يعيدوا الثقة بأنفسهم ويدخلوا في عالم العلم والثقافة، فيملأ ذلك فراغ نفوسهم، ويفتح أمامهم أبواب الأمل في المستقبل. ومن لم يكن مؤهلاً للقبول في المعاهد العلمية، تفتح لهم دورات تأهيلية في المجالات الصناعية والمعلوماتية وغيرها، إلى أن يقفوا على أرجلهم ويتقدموا في الحياة المعيشية، لكي يعينوا أنفسهم وعوائلهم، ولابد أن يساعدوا مالياً كل حسب وضعه وظروفه.

إن إعادة هؤلاء إلى حركة الحياة ضرورة أمنية واجتماعية، من خلال ما سبق أن ذكرنا ومن خلال التوجيه السديد، في دروس المساجد والمعاهد الإسلامية والمؤسسات الثقافية حتى نستطيع أن نقضى على التيار التكفيري الخطير، الذي استفاد منه أعداء الأمة في محاربة الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً، وننقذ الشباب من حبائله ونعيدهم إلى دينهم الحق، ومنجه الوسطي الشامل لنواحي الحياة كافة.

وتشويه الإسلام من خلال هذه المناهج الباطلة وغيرها، غدا منهجاً يومياً للاتجاه العولمي في الوقوف أمام حركة العالم الإسلامي في اليقظة والقيام واتهامها بالعنف والإرهاب، بلا تفريق بين المقاومة المشروعة التي تدافع عن الحق المعتدى عليه في فلسطين وافغانستان والعراق والشيشان والبوسنة والهرسك وكسوفو والصومال وكشمير

وغيرها، وبين هؤلاء القلة الذين خرجوا على موازين الإسلام في العقيدة والشريعة والسلوك، وزعموا أنهم يريدون أن يحققوا تطبيق الإسلام عن طريق العنف والإرهاب وسفك الدماء.

والطاغوت العولمي [1] ولاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم يجد عدواً يحاربه إلا الإسلام الذي يجده خطراً عليه في الوقوف أمام طغيانه وتأسيس إمبراطوريته المادية العولمية في استلاب الشعوب والأمم.

إن العولميين تأكد لديهم أن الحضارة الإسلامية التي تريد أن تبني نفسها بعقيدتها وقيمها من جديد هي الحضارة الوحيدة التي تقف أمام مطامعهم في السيطرة على مقدرات العالم الإسلامي سياسة وعلما وثروات.

الاتجاه التكفيري الذي يرتكب جرائمه في داخل العالم الإسلامي وخارجه باسم الإسلام قد أعطى مسوغاً إضافياً لهذا الاستعمار العولمي الرأسمالي الصهيوني المتوحش، ليلاحق النهضة الإسلامية المعاصرة وحركاتها الإحيائية الطليعية في كل مكان.

ولا يشك الباحث المنتج المنصف أن الأمة الإسلامية بعقيدتها التوحيدية الخالصة، وشريعتها السمحة المرنة، ونظامها الأخلاقي المنسجم مع الفطرة الإنسانية وخلفيتها الحضارية التاريخية، وضخامتها البشرية

---

[1] راجع كتابنا (العولمة من المنظور الإسلامي)

المتنوعة، واتساع جغرافيتها الخصبة، قادرة على البقاء ومواجهة العوائق والصعوبات وأوضاع البشرية عامة.

يقول المفكر التركي الدكتور أحمد داود أوغلو: "ومن المفارقات أن سياسات القمع والتحيز ضد العالم الإسلامي قد أسهمت في تقوية نزعة إحياء معايير الحضارة الإسلامية والاحتكام إليها، وظهرت ثمار هذه النزعة بوضوح في نهاية القرن العشرين عندما انتشر شعور متزايد بالثقة بالنفس، وأدى هذا الشعور بدوره إلى توليد حيوية اجتماعية وفكرية وسياسية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي"[1].

إننا نحتاج لإحياء هذه الروح في الأجيال القادمة إلى عرض شمولي جامع للإسلام الحق، وتطبيقاته المدهشة في كثير من مراحل التاريخ الماضي ولاسيما في سيرة النبي ﷺ وتاريخ الصحابة الكرام والتابعين، ووضعها في ذلك الجو الرباني الإنساني وتربيتها في ضوئها، من أجل إحداث تغيير شامل، وصياغة الأمة من جديد على المثل العليا التي أراد الإسلام إيجاد نموذج رباني كريم يدور في حياته حول القدوة العظمى للبشرية جميعاً هو سيدنا الأعظم رسول الله ﷺ الذي كان دائماً المحور الذي تتمحور حوله الحضارة الإسلامية.

---

[1] العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية، تعريب وتحرير ومراجعة د. إبراهيم البيومي، ص ١٩٠، ط ١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة

الفهرست

فهرست الموضوعات

الموضوع		الصفحة
مقدمة الكتاب		٥
الفصل الأول	قواعد أهل السنة في التكفير	١١
	• القاعدة الأولى	١١
	• القاعدة الثانية	١٣
	• القاعدة الثالثة	١٥
	• القاعدة الرابعة	١٦
	• القاعدة الخامسة	١٨
	• القاعدة السادسة	١٩
الفصل الثاني	مخالفة التكفيريين لعقائد أهل السنة	٢٥
الفصل الثالث	مصادر إنتاج التكفيريين	٤١
الفصل الرابع	حجج التكفيريين ومناقشتها	٦١
	• في تكفير الناس	٦١
	• في الترس	٦٦
	• الذين ماتوا يموتون على نياتهم	٦٩
الفصل الخامس	أسباب التكفير	٧٧
الفصل السادس	علاج قضية التكفير	٨٩
الفهرست		١٠٩
آثار المؤلف		١١٣